Bibliotheca Alexandrina

٨٩٢٫٧٣
ابو
م

١- محمد - لوكراج
٢- التراجم الذاتية

R.

صحائف من حياة

أو

مذكرات المرحوم محمد

الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
رقم التصنيف 808.883
رقم التسجيل ٢٦٩٦٠ ع

لناشرها

محمد فريد أبو حديد

المدرس بمدرسة فاروق الثانوية

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى — يناير سنة ١٩٣٤

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

مطبعة الشعب بشارع محمد علي بمصر

مقدمة الناشر

عثرت على أوراق كانت عند أحد باعة الكتب القديمة فلمحت فيها كلمات قرأت بعضها فساقني ذلك إلى قراءة ما يليها ثم مازلت حتى انتهيت الى آخرها فتنفست نفسا طويلا وشعرت فى نفسى بألم لذيذ وقد يكون الألم لذيذا إذا صادف فى النفس معنى خفيا لا يستطاع الافصاح عنه وانى رأيت أن انشر تلك الكلمات كما وجدتها ولا ادعى للقارىء أنها عمل كبير ولا أنها تستحق منه الاعجاب أو الاكبار فما أقصد الا أن يشعر من يقرؤها بمثل ماشعرت به وحسبى منه أن يتنفس نفسا طويلا وأن تتبلل عيناه كما تنفست وتبللت عيناى رثاء لضحية من ضحايا المجتمع ـ فان كان ذلك فاخرت بأنى نقلت الى الناس قولا يحرك نفوسهم وإلا كان واجبا على أن اعتذر عن اعصابى الضعيفة .

وقد كان فى عزم رجل قبلى أن ينشر هذه الكلمات

ولا ادرى علة قعوده عن عزمه وكذلك لا اعلم كيف وصلت هذه الاوراق الى بائع الكتب الذى وجدتها عنده. فلعل الدهر قد تقلب مرة على الثانى كما عصف بصاحبه فأفلتت تلك الأوراق الى حيث عثرت عليها وانى ذاكر للقارىء مقدمة كتبها ذلك الرجل الذى لم يتمم غرضه ؟

محمد فريد ابو حديد

مقدمة المجهول

ألذى آلت اليه الأوراق

سأجتهد أن اخرج هذه الأوراق كما تركها صديقى المرحوم محمد حتى إذا كان للناس قلب يتألم أو نفس ترحم تألموا ورحموا . كم فى العالم من اشقياء لا ذنب لهم فى شقائهم وانما هي جريمة النظام الفاسد الذى يسود على العالم فيجعل نصيب بعض الحرمان ونصيب بعض البطر والاغراق وكم بين الخلق من ضحايا ذهبوا بعد حياة كلها بؤس وشدة إذ عجزوا عن الفوز فى نضال الحياة ـ ذلك النضال الذى يفوز فيه الظالم والغاصب والجامد فى أيام ينعتونها بأنها أيام تقدم وحضاره .

لقد بدالى أن الحياة حقيرة وأن نظامها فاسد وان على عقول اهلها غشاوة من العادات والعقائد والأوهام ـ لقد بدا لى ذلك بعد أن ذهب من العالم صديق كنت أحسن الظن بالحياة من أجله ورأيت نفسى وحيداً فى صحراء جرداء

تجردت من زخرفها وانكشف عنها غطاؤها المموه .

إن قلبي دام ولا اريد أن اتكلم ويزيدني كرها في الكلام انى لا ارجو لماحول الناس من الفساد صلاحا سريعا لأن جذوره أبعد أصلا وأشد بأسا من أن يقلعها صراخ ولوعلا ولكنى لاأستطيع أن اكتم عن الناس صرخات صديقى المرحوم - تلك الصرخات التى لاأقرؤها إلا بزفرة ثائرة ودمعة متناثرة وصدر ضيق وفكر مضطرب

لقد مات صديقى ضحية فالى رحمة الله - بعد أن كتب تلك الكلمات فى آخر مدة من حياته كلما أجهده الهم بين يوم وآخر ولعل الله يجعل فى أجلى مهلة حتى أنشرها فيرثى البائس الحى لصاحب فائت ويرى المنعم اليوم صورة من حياة أخ شقى هلك بالأمس فى شقائه ؟

فهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

اول يناير . كان يجب الا ينزل البرد فى بلد به فقراء لو كانت الطبيعة عادلة . لقد كنت اسمع الناس فيما مضى يقولون ان الشتاء خير من سائر فصول السنة وكنت اوافقهم على ما يقولون اذ كنت لا اشعر بمثل ما اشعر به اليوم. فان الشتاء انما يلذ فيه السكون والدفء وهو فصل المنازل السعيدة والسمر العائلى المرح والاجتماع الهنىء فاذا لم يكن كذلك ذهبت حلاوته وبقى منه البرد والريح والمطر والظلام.

هذه ثياب امى المحبوبة لم تتغير منذ الصيف الغابر. وها هى راقدة على فراشها البارد تسعل سعالا شديداً. واألماه ان قلبى يتمزق كلما اسمع ذلك السعال يختلجها كذلك. أواه ! وكيف أنت الان أيتها الأخت المسكينة فى منزل جدتك . هل تسعلين كذلك وترتجفين من البرد مثل أمى؟

انى أبصر وقلبى يحس ولكن كيف السبيل الى غير ذلك وما حيلتى . أنا لا أزال طالبا لا اصلح لعمل . ووالدى

لا يستطيع ان يرسل لنا اكثر مما يرسل وأنا عالم بذلك العجز منه فلا أقدر أن أطالبه بما لا طاقة له به وهبنى طالبته فكيف يجيب ـ إن البرد يرجفنى انا كذلك ولكن ليس هذا بشىء فياليت كل البرد ينزل بى وتذهب مابى من حرارة الى ذلك الجسم المرتجف جسم أمى فأنا أقوى منها على الاحتمال.

إنها تحاول إخفاء المها عنى ولكن انى لها ذلك والضعف يبدو برغمها . سأعالج النوم برغم كل ذلك ولعلنى استطيع فأنسى ذلك البؤس ولو لساعات .

٥ يناير ـ عصفت الريح امس ليلا واشتد نزول المطر ولعن الله النوافذ المكسورة والسقوف المثقوبة ـ اننا لم نستطع النوم وقضينا الليل بين محاولة رتق فتوق وتجفيف سيول . الامتى يمضى ذلك القر الشديد ويحل فصل المساكين فصل الصيف . يقولون انه فصل مكروه تزهق النفوس من حره وتنتشر الامراض فى هوائه وتمرض الصدور من غباره ـ وهل ذلك عيب فيه ؟ إن من قال ذلك نسى أن أسعد يوم يطلع على العالم هو اليوم الذى يجتاح فيه الداء زمرة الفقراء البؤساء فيطهر العالم من داء وبيل ـ لا بل

استغفر الله انه اليوم الذى يستريح فيه اكبر عدد من الناس من عناء تلك الحياة وهل الفقراء الا اغلب الخلق ؟ إننى أعجب من تقسيم الحظوظ فى ذلك العالم ولا أدرى السر فيه فكيف يذهب الأقل من الناس عدداً بخير الارض ويترك للعامة الدهماء فضلات مايلقى من الطعام وسؤر مايعاف من الشراب ـ هل هناك كل ذلك الفرق بين قدرة بعض الخلق وقدرة البعض الآخر أم بين ذكاء وذكاء ؟ ـ لا بل اظن أن سبب ذلك الفرق بين الناس هو أن بعضهم قانع كريم وأن البعض الآخر شره تواق .

ولكن لم كل هذا التفكير الأسود ؟ لقد قال لى رجل فقير من اخوانى حكمة يجب ان اذكرها دائما اذا استطعت وهذه الحكمة هى ان انظر دائما الى من هم اسوأ مني حظا. فان فى الناس من يعدنى سعيدا .

<u>١٢ يناير</u> . لايمكن ان ابقى كذلك ابداً . هأنا شاب قوى اشكو كانى فتاة ضعيفة أو شيخ عاجز . أأبقى على ألمى ولا احرك يدى لعمل ؟ وهل ألوم الحظ واسخط على العالم عندما ارى امى تئن من مرضها مع انى جدير بأن

أسخط على نفسى أولا ؟ ما الذى يربطنى حتى لا اعمل على تخفيف ما انا به من الشقاء ؟ انى أقدر على قطع الحجر من الجبال وعلى ان أفلح الأرض كاى رجل آخر من العملة ولكنى مع ذلك أقعد ساكنا رجاء المستقبل – ويل لنفسى من ذلك الطمع الجاهل . انى كلما ابصرت قوما يعملون وجبينهم يتصبب عرقا شعرت بخجل عظيم اذ يتضح لى الفرق الكبير بين نفوسهم الكبيرة ونفسى الحقيرة ، فانى مثل الشحيح الذى يقضى عمره فى الجمع مخافة الفقر ولا يجد يوماً ما يجعله يقول قد اكتفيت . الا تعساً للمدنية التى تسبب تلك القيود فتذل النفس بها . ان العامل الذى يعود الى ابنائه فى المساء يحمل حزمة من الفجل اكرم منى نفسا واسعد قلبا لانه سعى وأتى لأهله بما قُدر له بعد السعى طاقته على حين أنى ألوم كل شىء واقعد عاجزا لا احسن الا الصراخ .

<u>١٥ يناير</u> . لا تريد امى سماع فكرى ولا تحب أن استسلم لتلك الخيالات – فهى مصرة على أن ابقى فى المدرسة حتى اتم دراستى فأخرج غير مستعجل الى أمل فسيح ولكنى لا أقدر أن اظل كذلك على ما أنا فيه هذه السنين المقبلة وهى

طويلة فى نظرى طول قرون . وإن عزمى ثابت لن يزعزعه-
حد حتى ولا أمى .

لقد قضيت طول ليلة الأمس باكيا لم يطاوعني النوم
حين طلبته — واحمد الله اذ عندى ديوان شعر
اشتريته من زمن افزع اليه إذا افعمت الكأس وزاد
بى الاسى فأجد فيه سلوى لا أجدها فى كلام أحد من
الناس - اللهم الاصديقى فهيم وأين هو منى . إنى لا اراه
الآن الا نادرا .

١٦ يناير - ماهذه القيود التى ازعم انها تقيدنى؟ مافائدة
هذه اليد وهذه الرجل وذلك الراس ؟ يجب ألا ألوم أحدا
غير نفسى إذا أنا لم أستفد بما وهبنى الله من قوى وهل خلق
الله هذه الاعضاء الا للعمل والكد والسعى الى الرزق .
أنا اعتذر عن نفسى بأنى لا أستطيع الدخول الى الميدان الآن .
ولكنى اعتل بعلل العاجزين . فان الأنسان لابد أن
يسعى وإذا سعى وخاب عن العمل الشريف رغم محاولته
فانى ابرر ان يقصد الى غير الشريف فلا لوم عندى
على السارق الذى اندفع بعد العجز الى السرقة ليقوت أهله —

لا بل انى أقول اكثر من هذا ـ أقول إن النفس الكبيرة إذا وقعت فى شقاء لم تجره هى على صاحبها ثم عجزت عن العمل الشريف بعد محاولته لوقوف المجتمع القاسى فى سبيلها وجب عليها الذهاب الى ابعد الغايات ، الى الاجرام البشع ، والنهب المحرم ، وهل هذا الا دفاع عن النفس ؟ إن المجتمع يحاول قتلها فلابد أن تدافع عن حياتها فيجب ألاّ تموت مادام فى العالم زاد يمكن اقتسامه . إن الاسد يفترس قوته غصبا وفتكا فلم لا يصير البائس كالأسد غاصبا فاتكا ـ أما أنا فخير لدى أن اكون كذلك من أن يقال فىّ إذا مت إنى مسكين قضيت اذ عجزت عن التماس الرزق .

٢٠ يناير. لقد زاد الحال على قدر الاحتمال وأرى جدران بيتى هذا المظلم ضيقة على نفسى واجد البرد فيه اقسى من البرد المعتاد. وكأنى أبصر قوما فى هذه الساعة جلوسا فى منزل كسته الرياش فغطت ارضه الحجرية الباردة وعليهم من الملابس ما يكسو الجسم فيقيه وخز هذا البرد القارس فاذا ما أقبل الليل كانت لهم سرر وثيرة الفراش يهنأ بها النوم ويلذ . ولكنى بعد ذلك التخيل ارجع لنفسى فاجدنى فى ارض مكشوفة

وثياب بالية وفراش بئس ما يفترش ـ انى اضحك برغمى وأنا فى تلك الحال لأنى تذكرت قول اخى الأعربى الجاف اذ يقول وهو يشكو ظلم الحظوظ

تركت عيالى لافواكه عندهم

وعند ابن عمرو سكر وزبيب

حقا انى أغبط قوما يجدون السكر والزبيب واعد ذلك نعيما ـ انها ضحكة اضحكها ولكنها لاتبسط انقباضا بل هى باردة كهذا الشتاء تذهب بالنفس ـ انها ضحكة اليائس .

٢٣ يناير ـ اليوم صحو وهو من الأيام النادرة فى هذه الشهور ـ إن الحرارة حياة فأقبل ايها الحر رحمة بأمثالنا ـ لقد مر على الناس وقت كانوا فيه اكثر تسبيحا لله وذكرا لنعمه وفضله ـ إن قدماء المصريين عندما قدسوا الشمس لم يعملوا اكثر من أن يسجدوا اقرارا بنعمة الخالق الجليل. ولكن عقلهم لم يدرك أن بعد الشمس إله .

إن الأنسان لايستطيع ان يشعر بمقدار فضل الله عليه شعورا اعمق من شعوره بذلك اذا رأى الشمس طالعة فانه عند ذلك يرى فضل الله محسوسا .

ما أجمل السماء الصافية والريح الهادئة فى هذا السكون الذى يحيط بى فى هذه الحديقة وإن الحقيقة لتظهر للانسان مجردة فى مثل هذا الوقت الذى لا يشغل الذهن فيه شاغل وتكون فيه النفس منصرفة عن التفكير فى الحياة ومظالمها.

ها أنا ارى شيخا كبيرا تقوده ابنة لعلها حفيدته وهو ينادى طالبا اليها ان تسقيه فأسرعت اليه مارة علىّ وانا جالس فتبينت وجهها فاذا هو جميل التقسيم فلها عينان سوداوان لكنهما غائرتان فى محجريهما ووجهها صافى البشرة ولكنه أصفر باهت وانفها مستقيم جميل وفمها مليح ولكنه منقبض قبضة تدل على تفكير قبل أوان العقل ـ حقا انها فتاة مليحة لولا صدأ الفقر الذى يعلوها. ماذا جنت هذه الفتاة حتى تنشأ نشأتها تلك ؟ فأن كل مظاهرها تدل على قوة ولو صح ان الفقر نتيجة ضعف لكانت هذه الفتاة من أضعف الفتيات ولكن هذه مغالطة دبرها انصار الشره والدناءة ارباب الغنى ـ أنهم يقولون ان الغنى مااغتنى إلا لقوة فيه وان الفقير ماافتقر إلا لضعف عنده ـ ما أغرب قولهم هذا ! ولكن لا ! انهم صادقون غير أنه يجب قبل تصديقهم أن نفهم معنى

مايسمونه الضعف ومايسمونه القوة .

أننالو فهمنا من هو القوى فى عرفهم لعرفنا انه ذلك الجامد الشره الوقح البخيل القاسى الذى لايتردد امام شىء فى جمع ماله . وان الضعيف هو ذلك المتواضع الشفيق الكريم الذى لايرى فى العالم شيئا أعظم من الحب والايثار .

٢٥ يناير – عاد السعال لأمى اشد مما كان وقد زاد الى ضيق المنزل الذى انا فيه فهو مظلم ونفسى تحب النور وهو بارد وانا احب الحرارة وهواؤه راكد وصدرى لايمتلىء الا من الريح الثائرة وهو ضيق وروحى لايسعه الا الفضاء الفسيح – ماأحب الفضاء وهواءه وشمسه ونجومه ! انى لو كنت فى العالم وحدى لما ضقت بحياتى – بل لوجدت فى شدتها شيئا من اللذة لأن الانتصار على المشقة نوع من دلائل الحياة وكل مايدل على الحياه لذيذ . ولكنى مثقل بهموم من أجل من احب . حقا انهم لايظهرون لى ألما غير انى لاانسى آلامهم لحظة – فهى تحت نظرى ماصحوت وهى مخاوف احلامى اذا نمت .

٢٨ يناير – مااحب ذلك المنظر الجميل ! نحن فى الشتاء

ولكن هاهو الزهر منثور يانع فى حدائق الجزيرة كأننا
نحن فى ربيع - أى بلادى انك نعم الوطن . ما أحب ذلك
القطر المتساقط على وجهى الآن فهو مثل كف رطيب
يمسح جبينى المتقد - اليس هذا القطر بنانك يامصر ؟ - وهل
هذا الريح الذي يهب على صفحة وجهى غير انفاسك الحلوة ؟
اني لايتم لى عيش حتى اشعر بكل مافيك من حر وبرد
وحتى اذوق من كل مطعوماتك التى تقدمين واشم من كل
ماينبت فيك وإن عاما لااشرب فيه من ماء نيلك العكر
ولا اتنفس فيه من هواء خماسينك الحار لعام ناقص مبتور .
اى بلادى انى اكاد اغفر لمن ظلمنى من اجلك لأنك امنا
جميعا .

٢ فبراير - حدثتنى نفسى غير مرة فى هذين اليومين
بأن اهلك نفسى . ولكن مهلا ايها القلب النزق الذى
لايفكر . هبنى قتلت نفسى . يالها من محبة لنفسى اذ اخرجها
من الحياة تاركا ورائى قلوبا تتحرق ولا تستطيع أن تلحق بى .
حقا أن الذى يقتل نفسه مجرم ولكنى ارى فى إجرامه غير
مايرى الناس . فأنهم يقولون انه مجرم نحو نفسه وانا اقول انه

قد عمى فى حب نفسه عن المغيره وان اجرامه واقع على من يبقون فى الحياة بعده ممن يحبونه او يعتمدون عليه . ليتنى كنت وحيدا ! فأنى كنت استطيع عند ذلك أن اعمل مابدا لى ، وأما الآن فلا أقدر على شىء حتى الموت الذى أستطيعه لا أملكه ، ولهذا فلأترك هذه الافكار السوداء وان العالم لا يزال به من الجمال ما يساعد على ان أنسى ما أنا فيه من شقاء ، هذا نوار اللبلاب وزهر الفول فيشرى بالربيع الاول ، وها هو الربيع أبصره فى العود ، وقد جرى فيه الماء ، وأراه فى الهواء ، وقد قل برده ، واراه فى الشمس وقد زادت نورا — يذكرنى الربيع بأيام مضت — فأذكر مدينة (دسونس) إذ كنت صبياً فى صفاء وسعة ، أجرى مع اختى المحبوبة — أواه كيف انت الآن ايتها الحبيبة — نعم انها صديقة صباى كانت معى وكنا نجرى كصغار المعز نثب من مكان إلى آخر ونتنقل بين الحقول اليانعة تحت ظل شجر السنط إلى جوار الترعة حتى اذا حان وقت الغداء ذهبنا الى الدار لناقى وجوها ضاحكة وقلوبا محبة . لقد مر ذلك العهد ولم يبق الا ذكره وشتان بين حال كنت فيها وحال أنا غريق بها

فقد كنت خليا ، وانا الآن شجبى ، وكنت احيا واتنعم بحياتى وحرارتى واتلذذ بما يقع تحت حسى ، وانا الآن أفكر ولا احس بنعيم الا من الفكر والذكرى . وانا الآن فى ظلمة ، وكنت حينذاك فى نور لا أرمى بعينى الا الى النور . وقد كانت الآمال فسيحة أمامى لا أكاد أشعر بقيد يمنعنى من السعادة ، وها انا لا أجد فى نفسى أملا .

أواه ! أني احببت أن أنتقل بالفكر من وساوس سودائى فاذا بى ارجع اليها برغمى — ان الشقى لا يستطيع أن ينسى شقاءه ولو حاول .

٥ فبراير . لقد عاد البرد اشد مما كان واحسرتاه ! وقد سادت الظلمة على الأرض مرة ثانية وانطبعت فى نفسى وكأنى بها مرآة تنعكس فيها احوال الطبيعة ولا تخطئ .

ما اضيق العيش رغم ما اعلل به النفس من الاوهام فان كل ما اقوله وانا بين الرياض آت عن الخيال لا عن الحقيقة — وها هى الحقيقة الجاهمة امامى — إن أول شئ فى السعادة أن يكون الانسان قادرا على العيش وهذا ما ليس لى . رحماك ياابى فكأنى بك قد رميتنى وامى واختى . ولكن ما

أقسى قلبي اذ أقول ذلك عن ابى! أأقول رمانى وانا اعلم انه اضطر الى ذلك اضطرارا ؟ انه جحود منى ان أتكلم كذلك عن والدى — اصل حياتى .... ها، ها! إنى اضحك من نفسى . أأقول «أصل حياتى» وهل هذه منّة أو هى جناية؟ لعن الله الفقر أنه كافر فلأدع ذكر هذا ولأ باك حتى أنام عن تلك الهواجس المؤلمة .

٦ فبراير . ارسلت لوالدى خطابا اسأله فيه عن رأيه فى تركى المدرسة لكى اعمل على القيام بواجب أهلى الى جانبه ولكنه ارسل اليوم الىّ يقول لى انه يغضب علىّ لو فعلت . ولكنى ساعصى ـ عفا الله عنى . وعفوك يا ابى . سأعصاك إذ لا أستطيع ان أتحمل سكوتى .

١٢ فبراير . زرنا اليوم المتحف المصرى انا وجماعة من أصدقائى وبينهم جماعة ممن درسوا تاريخ مصر القديمة درسا وافيا. وقد اخذوا يتناقشون فى عصور تلك الآثار ويقارنون بين بعضها وبعض من جهة الصناعة والجمال والقيمة . أما انا فقد دخلت الى ذلك المكان وكأنى فى حلم لا ينقطع . فلم التفت الى شىء بعينه ولم انصت الى قصة أثر ولا الى شكل

تمثال فان معنى آخذا بالنفس استولى على عقلى ـ فكأنى بدهور مضت قد تمثلت جميعها امامى صائحة (كنا) — لقد كان الناس ثم زالوا ونحن الآن كائنون ثم سنزول .

وقفت بجانب جثة رمسيس الاكبر . وكأنى به يتنفس . ثم تصورته اذ كان شابا تملؤه قوة الشباب وهو على جيش كبير يقوده للشام حتى اذا ما أتم حربه عاد الى بلاده وقد ازينت وخر الناس عند لقياه الى الذقون . ثم تصورته وهو فى قصره بين خدمه واهله تنتظر عيونهم اشارة منه ليسرعوا إلى تلبية مايريده ربهم . وكم من نظرة له سببت موتا وكم من ابتسامة من فمه تطاحن عليها المتنافسون ! ثم تصورته وهو فى موكبه العظيم والناس ينظرون اليه ؛ ولا يجسرون على الاقتراب منه. ثم تصورته وقد مات وتخيلت المحنطين إلى جانبه بايديهم السوداء حتى لكأنى كنت اراهم يمسحون ويدهنون . ثم تصورت جنازته ولحده بين اناشيد وبخور ورسوم وفيما أنا فى ذلك إذ صحوت عندما دعانى صديق للسير إلى مكان آخر فنظرت فرأيت أن ليس أمامى إلا جثة بالية فى بيت من الزجاج أنظر اليها ثم أسير ويجىء غيرى فيرمقها كذلك

ثم يمضى عنها . وهكذا الدهور تمضى وهكذا الاحوال تحول.
وهكذا يظن الناس أنهم ملكوا الأرض فاذا هم زائلون واذا
هى باقية ـ حقا إن من فكر فى الحياة وجدها هينة حقيرة خادعة.

٢٠ فبراير . لم يظهر الى الآن شىء يجعلنى آمل فى
وجود عمل أستطيع أن احصل منه على كسب . وقد
ارسل لى والدى امس جوابا لمحت بين سطوره الما خفيا
ولست ادرى ماذا جد.

يجب ألا افكر اليوم كثيرا فهذا الجو لطيف قد عاد
الى الصفاء والجمال . وما أجمل الحقول اليوم ! فلأترك كل
شىء لأخلو بنفسى قليلا فأعيش ولو ساعات خلسا من العمر
وما العيش إلا أن يترك الأنسان كل القيود الاجتماعية
التى خلقها الناس ليشقوا بها. قد يعمر الأنسان سنين طويلة
ولكنه لا يحيا فيها وذلك إذا كانت تلك السنين قد قضاها
فى تفكير وسعى للمادة ـ فاذا أمكن الأنسان أن يعيش
كل عمره لا يفكر فى المادة عاش ممتعا بكل عمره . اريد أن
اخرج وحدى الى الخلاء لكى افرج عن نفسى وذلك سعى
لتخفيف آلامى الدفينة ـ ولكن ما أشد حبى لنفسى ! وماذا

تفعل أمى المسكينة وهي مريضه وماذا تفعل أختى المظلومة الجميلة وهى بعيدة عنى ؟ لأحرمن نفسى تلك اللذة التى هممت بقنصها تحت نور السماء حتى اقاسم أمى وأختى المهما ـ ولا كنت اذا أنا فكرت فى نفسى ونسيت من أحب !

٢١ فبراير . لقد ملكت الأنسانية على الأنسان حيوانيته فقد عزمت أن احيا وأخلى فكرى من مشاغله فلم أقدر فما أشقى الأنسان بما يسمونه رقيا وما أحسن النسيان وارفقه بمثلى ـ لأن الأنسان إذا لم يقدر على الخروج من انسانيته خروجاً كليا كان النسيان هو الوسيلة الوحيدة لخلاصه من آلامه . فهلا دام النسيان !

لاأفهم كيف يهنأ لفقير عيش إلا إذا كانت نفسه ضيقة مظلمة ولكن نفسى تواقة الى الصفاء والأنطلاق والسعة وما أشقاها بما تتوق اليه ـ إن صاحب الفقر المعوز إنما يقدر أن يحيا إذا نمت فيه قوة واحدة وهى القدرة على الخضوع . وويل لمن لم تنم فيه تلك القوة فأنه يكون أشد المخلوقات تعاسه ـ مثلى .

٣ مارس . لقد تفتح الربيع وأطل من زهوره وغصونه وتردد فى صوت الزرزور وجرى فى عروق النبات . ألا يحل معه ربيع لهذا القلب الكليم ؟

انا فى انتظار خطاب والدى فاليوم ثالث أيام الشهر ولم يرسل أبى ما اعتاد أن يرسله لى كل شهر ولعل فى الغياب خيرا . أن الخيال ميال ابدا الى الوثوب والتفاؤل ولهذا أجدنى أخادع نفسى عن سبب ذلك الغياب وأقول لها لعل أبى قد وجد شغلا جديدا شغله عنا حينا وأن بعد ذلك الغياب سعة غير منتظرة . ومن يدرى لعل الله أراد بنا خيراً بعد توالى الشدائد . أما أنا فقد ضاقت بوجهى وجوه الحيل وتبينت وحدتى فى ذلك العالم إذ لا أجد من يسعى معى أو يقبل منى سعياً . فلأصبر ولعل الفرج آت من ناحية اخرى

٥ مارس . لليوم لم يرسل لى ابى خطابه الذى انتظره بصبر نافد وقد بدأت اضطرب . واخذت خيالاتى اتجاها غير اتجاهها الأول لأنى شعرت بالهوة التى تحت قدمى — بالهوة السحيقة التى تهددنى بالهلاك فى كل ساعة إذ لا شىء

لى ولاشىء لمن معى نستطيع به أن نعيش فاذا منع مانع ابى من ارسال مساعدته الشهرية المعتادة لم أجد امامى مستنداً اتكىء عليه . فلا صناعة لى ولاتجارة ولااقدر أن أكسب واحصل على القوت من عمل ما . فأنا عاجز كل العجز واذا لم يسعفنى ابى لم أجد أمامى إلا الاقتراض أو السؤال أو النهب والسرقة. أما الاقتراض فمن ذا يقرضنى ؟ وأما السؤال فلا كانت تلك الحياة الذليلة وأما النهب والسرقة فليس امامى باب سواه . فلاحول ولاقوة إلا بالله! انه لم يبق بينى وبين الاجرام إلا مرتبة واحدة .

لأصرف الفكر عن تلك الهوة وليزر الموت قبل ذلك الوقوع ولكن إذا زار فلتكن زيارته لمن أحب معى . فهو أهون حظ نلقاه جميعا .

مساء اليوم . جاءنى كتاب والدى الساعة وياليته ابطأ حتى صباح الغد . فأن الليل مقبل وكيف احمل ظلمة الليل ووحشته مع ظلمة ماجاء بالخطاب ؟ لقد كنت فى انتظار ذلك الكتاب قلقا ضجرا ولكنى الآن حائر يائس وما مرارة الا بعدها مرارة أعظم .

لقد كنت اندفع مع الأمل فتوقعت أن التأخر بشير بفرج مقبل تمكن فيه الحياة واقدر فيه على الكفاف ، ولكن ذهب الخطاب بكل أوهامى فأظهر لى أن تأخر أبى عن عذر لا عن شغل .

رحماك ياوالدى : لقد كنت اقول انى أفضل الموت على السؤال أو الاقتراض وكنت أقول إن الاجرام أقرب الىّ من ذلك فكيف تريدنى على السؤال لنفسى ولمن معى ولك ؟ أأقف امام خالى سائلا ؟ ماأمر تلك الحياة التى لايجد الحى فيها القوت : إن مثلى ومثلك ياأبى (عفا الله عنى) ومثل من معى ـ انا جميعا عاجزون عن البقاء فى نضال هذه الحياة فلنمت وليبق الذين يستطيعون البقاء فيها قادرين. لنمت جميعا وليبق اهل الطمع واهل القوة واهل الجمود واهل السعى لأنهم يقدرون على البقاء فى النضال . لنمت ! لنمت ! لنمت !

٦ مارس . للآن لم اعمل شيئاً وأنا حائر بين الموت والذلة . نعم ولو كان الأمر قاصرا على لفضلت الأول ولا شك فان خالى لا يعلم للآن عنا إلا أننا نعيش مستقلين على ما يرسله

لنا والدى ولا يعرف مانحن فيه من شدة فماذا تكون نظرته إلى ، وهو مثل الناس ، إذا علم مانحن فيه من شقاء ؟ وإنى للآن لم اخبر أمى ولا أظن أنى سأخبرها خوفا عليها . رب قونى واهدنى فانى لا استطيع السير وحدى ـ وأبق اللهم على إيمان أضن به وأخاف ان تزعزعه تلك العواصف. كيف قسمت الحظوظ بين الناس إن كنت قسمتها لهم — إن الناس يلقون التبعة عليك يامولاى تخلصا من تبعتهم ولكى يلقوا على عقول المحروم غشاء وفى يديه قيدا . هنا قوم يموتون جوعا وهناك قوم ينعمون وتمرضهم البطنة . وهل انا وامثالى لا نستحق عندك الا ما وهبت لنا ؟ وهل بيننا وبين أهل اليسار والترف كل ذلك الفرق عندك ؟ كأنى بقوم الآن يجرّرون الذيول على ابسطة من صوف وحرير ويأكلون فى ليلة مالو جمعت فضلاته لكفت عائلتى المسكينة شهرا ويشربون ما إذا بيع سؤره لقام بقوت دهر لقوم يموتون على الطوى . ولكن ماذا يفيد صراخ والناس لا أمل فى شفائهم ؛ ليتنى استطيع ان اخرج صرختى هذه فتهد صروحا قامت على زفرات البؤساء ومدامع اليتامى.

وعظام الصرعى ودم القتلى .

أواه ! فلأسكت إذ لا أقدر على شيء .

٧ مارس . لم أذهب بعد إلى خالى (على) فلأقم الان . لقد كنت أقول إن المادة ليست بشيء . كنت أقول هذا وانا سائر فى الخيال وسط الطبيعة الساكنة . ولكن ها أنا أرى ان الانسان نفسه مادة وان المادة لها كبر شيء فى الوجود . إن الحقيقة شيء والخيال خيال – وكفى .

مساء اليوم . ذهبت الى دار خالى (على) وصعدت على السلم ثم عدت ولم اقدر أن أكلمه فى شيء – لأنى اخذت اردد لنفسى ما يحتمل ان يرد به على . فربه رفض ان يساعدنى مع علمى بقدرته – فماذا أكون قد جنيت ؟ اللهم الا خسارة عظمى اذا كشف لى الحق عن خسة رجل من اهلى . ففضلت أن أبقى على الغطاء ولا أبصر ما تحته خوفا ان تكون الحقيقة بشعة كما تعودت أن أراها . فلألتمس المساعدة من ناحية أخرى .

٩ مارس . سعيت وظهر لى مالم أكن متحققا منه مثل تحققى الان وذلك أنى لا أصلح لعمل ما . وماذا افادنى عمرى

قضيته فى الدرس ؟ إن هى إلا خيالات وأوهام يسمونها تربية ولعن الله تلك المدنية الكاذبة . أين لى أن أكون متوحشاً اعرف كيف أضرب بسيفى وارمى بسهمى وأحصل بذلك على قوتى . مرحى للمدنية التى تعلم الشاب كيف يموت جوعاً !

وقد اتانى اليوم من ابى خطاب آخر يسألنى عن علة ابطائى عليه وكم يوما أبطأت ؟ . ويلى — فلا عزة مع حاجة ولو غالط الانسان نفسه . واذا كنت لا اقدر على العمل، فلم لا انزل بالنفس على حكم الفقر والعجز ؟

نعم انى لا احسن شيئا — حتى السلب الذى اتحدث به — لا أحسنه بل لا أعرفه ولا أقدر عليه فهو يحتاج إلى نفس غير نفسى .

١٠ مارس . ما اليوم خيرا من الأمس وقد زاد الأمر شدة مرض أمى وازدياده . وقد شكوت إلى أخى (فهيم) فاشار علىّ أن أنتقل إلى منزل آخر — يشير على أن أذهب الى منزل فيه الهواء طلق والشمس باسطة بساطها — أى أخى ان نفسى تتوق إلى مثل ذلك الذى تشير به ولكن

ما أظلم قيودى حفظك الله من مثلها .

مساء اليوم . عزمت بعد طول ترددى على مقابلة خالى (على) مهما كلفنى الامر وذهبت اليه اليوم — والحمد لله إذ مازال الخير فى الناس . وشكراً لك ياخالى. ما احسن بشاشتك !

ذهبت الى خالى العزيز وأنا متردد لا اكاد أرفع عينى إلى ما حولى وكان معه جماعة لم أتبين وجوههم لما كنت فيه من الارتباك ثم هممت بالرجوع وفعلا بدأت ارجع حتى وصلت الى الباب وأنا اتعثر ولكنى ذكرت الفشل وآخرته وتمثلت اهلى وقد احتاجوا الى قوت لا يجدونه وتمثلت أبى وكأنه يمد يده إلىّ طالبا أن أقف بجانبه . فعزمت على السير فى طلبى ولو ضحيت بماء وجهى . لكنى عندما دخلت على خالى ورجوته فى كلمة لاحظ ارتباكى وترددى فاهل بى وهش الىّ حتى استأنست ثم تجرأت فهمست اليه بما أريد. فأسرع الى التلبية وكأن عينيه تعتذران عن انه لم يبادر بالجواب قبل السؤال .

إنك قد جعلتنى أحسن الظن بالناس قليلا من أجلك . ياخالى العزيز، فانا الآن اقول مازال الخير فى الناس. وجزاك .

الله خيرا فلا اظن انى أقدر ان أجزيك .

١٣ مارس . زاد المرض بوالدتى وماذا استطيع ان اعمل وهاتيك يداى مغلولتان وقد جاءنى اليوم (فهيم) وهو يشير مرة اخرى بالانتقال من منزلى الى آخر . يشير علىّ واعده بالسعى ولكن لا اقدر على مصارحته بالحق . فهو لا يعرف على انه صديقى المخلص ـ لا يعرف ما أنا فيه من رقة الحال وأظنه لو علم الحق لا يعتقده . فلا أخاله يتصور أن صديقه الذى لم يشك اليه مرة ضيقاً من أشقى الناس وأشدهم بؤساً .

١٨ مارس . جاءنى اليوم رد أبى يقول فيه :

« واعلمك ان السبب الذى من أجله طلبت منك الاقتراض مع علمى بثقله على نفسك يابنى ، ان عمك ، غفر الله له ، توقف عن الصرف معى هذين اليومين مع ما نحن فيه من حاجة إلى رى وعزيق . فيا بني اشكر خالك نائباً عنى وقل له رب اخ لم تلده أمك . وأما انت فاعف عنى إذ وقفت بك موقفا كنت احرص على الا تقفه ولكن اظنك تلتمس لى الاعذار ، بدل الحنق علىّ . وحفظك الله وقواك يابنىّ » .

هاانا ارى الدهر يزداد عبوساً ولكن لا بأس . فلعمرى

أنه قبيح بالمرء أن ينحنى أمام النوازل ولا بد من العمل ولو شق واستعصى السعى اليه فى أول الامر . انى كلما تذكرت أمى وأختى ذبت أسى فانهما يشقيان بضعفى . ولا تجدان ما يجد امثالهما من العيش . وإنى كلما ذكرت ذلك شعرت كأن ماء مثلجا نزل على قلبى فكاد يوقف حركته وتأخذنى رعده من رأسى إلى قدمى تكاد تزهق لها نفسى وأحس كأن لهيبا يتقد ما بين عينى . إن حنقى على العالم اقل من حنقى على نفسى لعجزها وعلى تربيتى التى تعلمنى صناعة واحدة — صناعة الاتكال واليأس .

٢٠ مارس . انه السحر فى هذا الفضاء : أخرج اليه ونفسى تتمزق الما وغما فما يلبث الحزن أن يذوب كما يذوب الضباب امام الشمس . فان تلك الانفاس التى كان ينفجر بها صدرى استحالت الى زفير عميق لا يمزق الصدر بل يروح عنه وهذا الحزن الكامن الذى ظل يتردد بين جنبى قد سال اليوم فى تلك العبرات التى ذرفتها ، وتلك الحمى التى كانت تشتعل فى جبينى قد ذهبت مع النسيم البارد فعدت بعد ذلك الى الثبات والأمل ، وكل هذا دلالة قاطعة على أن الهموم أعراض من

خلق الأنسان وليست طبائع جوهرية .

رأيت اليوم امرأة عمياء تجرها طفلة صغيرة بالية الثياب ، وكنت عند ذلك مهتما لما أنا فيه — فتأملتها وهى سائرة مع تلك الفتاة ، وهى تنادى صارخة الى الله تطلب منه قوتا ، وفى ندائها من الثقة بالله ما لم تزعزعه عواصف الفقر . هذان شبحان من اشباح الحياة وقفت انظر اليهما واعتبر ، فلقيت فيهما مازاد ألمى ، ومنظر البؤساء عندى أجل مايثير النفس ويبعث فيها الاسى لأنى أعرف ألم الخوف من يوم يطلع لا يستطاع فيه الحصول على زاد . ثم اقبلتا نحوى تسألانى عطاء مما أعطانى الله . نعم ، فانا من المنعمين فى نظرهما ، فترددت أأعطى مما أنا محتاج اليه ام أضن به ، ولكننى لم أتردد طويلا والحمد لله اذ وجدتنى استطيع قوت يومى . ومن يدرى لعل هتين الشقيتين تبيتان على الطوى لو لم أجد لهما ببعض مامعى

٢٤ مارس . لا ازال اجد راحة فى نفسى من أثر الايام الماضية التى قضيتها فى الهواء الطلق ، فلا أزال أذكر الليل البهيم الجليل ، والنجوم العالية تلمع به ، ولا أزال أتخيل النيل

وهو يموج مع النسيم، ويرتطم بالشاطىء لا تقيده قيود،
ولا ازال اتصور تلك العوالم فى علائها كأنها تنظر إلى أرضنا
نظرة الكبير العارف إلى الطفل الجاهل وكأنى بها تبتسم
سخرية كلما رأت أهل الأرض كيف يتطاحنون على السفاسف
ويتقاتلون على أحقر الأشياء — ألم يقض الانسان دهرا
طويلا فى نضال وعراك على معدن أصغر من معادن الارض
لايفترق عن سائر الاجسام إلا كما يختلف جسم عن آخر؟
إنى كلما أعدت لنفسى تلك الصور ذهب عنى كثير من
عناء هذا العالم واحتقرت الماديات التى احزن لحرمانى منها
كل ذلك الحزن الذى يكاد أحيانا يذهب بنفسى — حقا ان
السعادة تكون أقرب إلى النفس إذا تجرد الانسان من
مشاغل المادة وخلص إلى اللذات البسيطة — لذات الحياة الطبعية
ومسرات الهواء الطلق . وقد رجعت فى كل ليالىّ السالفة
بعد هذه الخيالات فلم أستطع النوم فعمدت إلى الديوان
ألذى كنت اشتريته وأخذت أقرأ بعض مابه وحبذا هو
من رفيق فأنه لايترك شيئا أشعر به لايصوره صورة
واضحة جلية — وقد وجدت به قطعة صغيرة أعجبتنى لأنها

توافق شعورا فى نفسى وهأنا اثبتها هنا

الأرض وضّاءة الجبين
والريح فى رقة الحنين

والشمس محجوبة وكادت
تصافح الافق باليمين

والغيم أسرابه تهادى
ووشيها معجز الفنون

لخمرة الورد فى اصفرار الـ
أقاح من فوق ياسمين

والماء صاف له خرير
كهمسة السر فى سكون

والطير مابين مستعيد
مرجّع سجعة الأنين

وبين جذلان ثائر اللهو
وبين ميّاسة الغصون

لمثل هذا الجمال سحر
يذيب من سورة الشجون

* *

وبى من الهم ماتولى
ظلامه فى سواد قلبى
سرى بمجرى العروق حتى
يضيق بالنفس كل رحب
أظل فى حيرة سقيما
وليس فى الخافقين طبّ
حتى إذا ما شهدت هذا الـ
جمال يوما رأيت حسبى
نسيت فى ساعة شجونى
وعاد حينا الىّ لبى
وأسفر القلب واستحال الـ
أمرّ من همه لعذب
وليس هم الحياة إلا
وليد سعي الورى لكذب
يؤم هذا الورى سرابا
يزيد بعدا بكل قرب

***

خبرت تلك الحيـاة مابيـ

ـن حالى الحزن والسرور

فدارنى حلوهـا كؤوسا

وذقت من مرّهـا المرير

وفزت من لذةٍ بمـا فا

ت كل مستمتع جسور

وعشت أيامهـا مـلاء

كأنمـا عشت فى دهور

* *

لنسمة الريح فى صبـاح

والشرق فى أول السفور

ورونق الزهر فى رباه

يـدل فى لونه الطهور

ولؤلؤ الطل فى غصون

تهزهـا سجعة الطيور

لذائذ النفس فى حيـاة

جهادهـا آلة الغرور

٣٠ مارس . ما اكثر تردد الانسان وتغيره : فهو ساعة يحتقر الحياة ومادتها وفى أخرى يحس بقيوده الثقيلة فيتغير ، حتى لقد بدا لى ان كل شىء فى العالم نسبى وان الانسان يرى الاشياء بحسب حالة نفسه فاذا كانت نفسه سعيدة رأى الاشياء كلها طيبة صالحة وإذا كانت نفسه شقية لم ترقه الاشياء جميعا - فليس هناك شىء جميل فى نفسه ولا شىء قبيح فى ذاته والعبرة بحالة نفس الانسان .

ما أحسن الزهد لو كنت فى العالم وحدى . فان نفسى لا تتطلع كثيرا الى لذات الحياة لطول ماعودتها الامتناع عنها والخلاص منها ولكن معى غيرى ولا استطيع ان احملهم على مثل ما احمل عليه نفسى - انى أرى أمى فى مرضها وضيق ذات يدها وقد كانت ربة السعة والكرم - وارى اختى ولا أمل أمامها وقد كان أفسح الامل ضيقاً فى عيننا لأجلها . فكيف ازهد فى الحياة ومادتها ومعى مثل هاتين . ولكنى اكاد افقد الثقة بنفسى إذ أقول كل يوم لنفسى هلم للعمل ثم لا أجدنى أتقدم خطوة فى سبيله . هل سد كل طريق للسعى والعمل ؟ وإذا كان كذلك

فاين اللصوص والسفاك أتعلم منهم كيف يحصلون على رزقهم وأكون مثلهم ؛ فان المجتمع إذا كان لايشعر بألمى ويتركنى للموت غير مبال فان أكون أكرم منه بل لا بد أن أكون مثله جمودا وجشعا وقسوة.

لكن مهلا أيها الخيال أرانى قد بعدت فى تصورى وهياجى ـ فلا بدأ بالسعى إلى العمل، ولا أظن المجتمع على مايصوره الخيال الحانق من الجمود والقسوة، فلكل عامل فيه مجال لو عرف السبيل الموصلة إليه .

٣ ابريل . سعيت وسعيت وارجع وفى قلبى جرح دام من الخيبة وزاد يقينى فى قلة صلاحى ونقص عدتى فى نضال الحياة وياليت لم أقض تلك السنين فى درس لايفيد بل يقتل النفس ويطفىء نارهـا . وقد بدا لى أخيرا أن أطلب من أخى (فهيم) أن يبحث لى عن عمل وذكرت له شيئا من حقيقة أمرى . ثم أرسلت إلى أبى أخبره كذبا انى بخير ـ ولا بد أن ينتهى هذا العذاب يوما ولو بعد حين فان للحياة آخرا .

٦ ابريل . إن (ش) بك مدين لوالدى ببعض المال ولكنه

لا يعرفنى وأخشى إذا سألت أبى أن يرسل طالبا ماعنده أن يأبى - إنى أعرف أنه يأبى لو سألته ذلك لانه لا يضر فى العالم أحدا إلا نفسه وإيانا ، سامحه الله وغفر لى ، فلأذهب اليه أنا .

مساء اليوم . أرجع الآن من عند (ش) بك ولكن بخفى حنين ولقد ذهبت اليه وأنا كالمحموم لما كنت فيه من الاضطراب والخجل ، فلم استطع قولا وأى عذر أقدمه له ؟ وكيف يعتقد انى حقيقة ابن دائنه ؟ ولو كنت فهل جئت باذن من أبى أم أنا آت من قبل نفسى ؟ وقد لحظ الرجل عند ما رآنى انى مرتبك مضطرب ، ولا أظنه إلا حسبنى شابا من القتلة جئت لأوذيه ، فتوارى منى ودخل بعد أن سلمت عليه متلعثما ، وكان ينظر على كتفه إلى خلف وهو مسرع فى مشيته كمن تتبعه أفعى لا يريد أن يقف خوفا من لحوقها به . وأعجب شىء أن الرجل لم يصرخ طالبا النجدة ، ولا أظن إلا أن الخوف هو الذى أدهشه عن التفكير فى ذلك . ها ، ها ، ها . إنى أضحك برغمى عند ما اتذكر هيئة الرجل وهو ممن يسمونهم العظماء ، إذ يولى متعثرا خائفا

ويتركنى وراءه واقفا والكلام على طرف لسانى . لقد هون على فشلى أنى كسبت شيئا إذ رأيت مظهرا جديدا من مظاهر الناس. مسكين أنت يابك: إنك لن تنام الليلة ، ولو نمت لرأيت ذلك الشاب المضطرب فى منامك ماسكا بيده خنجرا يهوى به الى صدرك الأجوف ، مرحى مرحى ، لقد عرفت أخيرا أن وجهى قد يتخذ شكلا مخيفا، وأنى أقدر على إيقاع الفزع فى القلوب، وهذه خطوة لا بأس بها إذ تبين لى أنى اقدر على السعى حراما فى سبيل الرزق إذا أنا عجزت عن وجود الحلال.

٩ ابريل . لا يزال لى ما أشكر الله عليه كثيرا . فأمى تتحسن حالها يوما بعد يوم وقد اوشكت ان تقوم من مرضها . ولعل بطء تقدم صحتها لقلة الدواء وسوء الطعام، ولكن قوة بنيتها تساعد على مكافحة المرض والحمد لله . أنى كلما تذكرت خيبتى عند (ش) بك اقول لنفسى انى قصرت، لانه كان الواجب على أن أكون أصفق وجها وأكثر إلحاحا، فبدل رجوعى خائبا كان يجب على أن أسير حتى أرغم الرجل على سماعى ومعرفة ماجئت له ، والخجل طالما أضاع على صاحبه فرصا، والحق أن أصفق الناس وجها أكثرهم

نجاحا فى هذه الحياة .

١١ ابريل . سرت اليوم فى الطريق فوجدت جماعة استرعوا نظرى، وهم فقراء، بعضهم مستلق إلى جانب الطريق، وبعضهم جالس يشكو وبعضهم سائر . وهم مختلفو الاشكال والعاهات، فمنهم الأعمى ومنهم المقعد، ومنهم المريض بالرمد والمرمى بالزهرى والأبله . كل هذه كانت صورا أخذت أستعرضها حتى انتهى بى السير إلى شاطىء النيل كعادتى، فنظرت الى اللجة المضطربة وكانت نفسى تتوق إلى أن تغوص فى تلك اللجة وتتخلص من الحياة، والحق ان هذا الشعور يعاودنى كلما وقفت بالنيل : فكأنه أصل حياتى ويريد أن يعود اليه بعضه فينضم إلى أصله، وأخذت عند ذلك أسترجع فى الذهن ما رأيت، وأسأل النفس عن السبب فى شقاء هؤلاء الفقراء الذين مررت بهم، فوجدت أنهم جميعا يشقون بجريرة غيرهم . وأى ذنب للأبله فى بلهه أو لصاحب الزهرى الموروث فى دائه أو للفقير فى فقره أو للأعمى فى عماه؟ وأخذت استطرد من فكر إلى آخر أقلب الفروض لعلى أجد من بينها فرضا يقنع نفسى الحائرة و يفسر لى معنى ظواهر تلك الحياة : وعند

هذا انتبهت إلى عود صغير تتقاذفه أمواج النيل، وكان هذا العود بمثابة وحى هبط إلىّ، فاجابنى عما سألت، إذ رأيت فيه مثلا للانسان فى تلك الحياة، قذف فيها بغير إرادته، وخلق فكانت الحياة عليه واجبا تجب تأديته على أى حال. وما تلك المظاهر من غنى وفقر وصحة ومرض وسعادة وشقاء الا أعراضا لا قيمة لها ولا عبرة بها ـ لقد تبين لى منذ رأيت ذلك العود أن الحياة غير صعبة الفهم، فهى ميلاد واجب ثم حياة واجبة ثم موت واجب.

ايها النيل العزيز، لقد كنت صديق احزانى وانت الآن معلمى والموحى الى نفسى بأسمى المعانى، والمجيب على أخفى الأسئلة وأدقها.

لقد جاءنى الليلة خطاب من صديقى فهيم يقول لى فيه انه اوشك ان يجد لى عملا فعسى ان تصدق الاحلام.

١٨ ابريل ما أشد سرورى بمكسب قليل حصلت عليه! فلقد اكتسبت اليوم جنيهات قليلة أنا بها أشد اغتباطاً من سرور اكبر الأغنياء بآلافه — إن عود الكبريت الضئيل إذا أضاء فى حجرة مظلمة تنفس فى

ظلمتها فأوضح جوانبها ، ولكن المصباح القوى اذا سطع نوره فى الظهر الأحمر لم يؤثر شيئا. فلأهنأ بذلك المكسب الضئيل وليكن فى سواد أيامى شعاع من نور .

وقد جاءنى هذا الربح عن طريق صديق فهيم ، ولعله شعر من طلبى له ان يبحث لى عن عمل، أنى محتاج إلى شىء من المال ، فأحب أن يسرع بالمساعدة ما استطاع — إننى أعلم أنه لايحب شيئا اكثر من مساعدتى ولا يمنعه شىء أن يقدم لى مايحب من المساعدة إلا خوف إيلامى . ولاأظنه ألا قدأتى إلىّ بمساعدته عن طريق يشعرنى بأ نى أنا الذى قمت بخدمة له . فانه رجانى أن أقوم ببيع بعض قمح من زراعة أبيه ، وقال لى ان أباه طلب منه أن يبيع له ذلك القمح مثل (سمسار) ويأخذ نظير عمله جزءاً من الثمن؛ وطلب منى أن أبيع القمح بدله وأشاركه فى ربح الوساطة — ولم أفطن إلى إدراك حقيقة صنع صديقى إلا بعد أن تمت الصفقة وأخذت قسطى، لأن فرحى بالعمل والكسب أنسانى أن أفكر فى شىء ، ولكن لا بأس بذلك فأنا مغتبط بما كان، وهلم إذن إلى صديقى النيل وإلى الفضاء المتسع حيث اعتدت الذهاب

فى ساعات ضيق ، لأن الحفاظ يوجب علىّ أن أشرك فى سرورى من أشركه معى فى أحزانى ولو كان جماداً . وسأذهب غداً لأشترى بعض الملابس لأمى وأختى فأدخل عليهما بعض السرور .

٢٠ ابريل . عدت من مقابلة أخى فهيم قرب المغرب وقد عرض علىّ آراء عديدة تتعلق بالعمل الذى سألته أن يساعدنى فى ايجاده . والحق أن كل أرائه سديدة ، وهو يفضل عملا كتابياً فى دائرة لصديق والده (ع) بك بقرية دسونس ، وأنا معه فى ذلك . إنى كنت أحب فهيم حب صديق ، ولكننى الآن أزيد على ذلك الحب شيئا من الأعظام لأنه ناصر لى وقائد لخطواتى . وقد رأيته يفكر فى ذلك الشأن تفكير رجال خبروا العالم وما كنت أحسب فيه تلك القدرة . ولا غرابة فى ذلك فهو مخالف لى من كثير من الوجوه ، لأنه يحيا مع الناس وأحيا انا أكثر أوقاتى فى الخيال . ولقد تركته والأمل ينتعش بنفسى .

رأيت وأنا عائد الى المنزل شيخا كبيرا من أفقر الناس ولكنه نظيف الملابس على قدمها ، جميل الهيئة أبيض اللحية أسمر الوجه

وعلى وجهه ابتسامة لا تفارقه، وكان جالسا ورائى فى (الترام) يحدث جيرانه حديثا بسيطا ويضحك من حين الى آخر ضحكة خالية من الهم . فمر الترام ببائع (بالونات) حمراء صغيرة ، فناداه واشترى منه اثنتين واعطاه ثمنهما قرشين وهو يقول « ان لى ابنين يطلبان كل يوم أن أشترى لهما طيارتين حمراوين وجبر الخواطر على الله » ثم ضحك وضحك كل من بجانبه وضحكت معهم ملتفتا اليه . فقال له أحد الجلوس ولكن الرجل غلبك ، فأن ثمن هاتين قرش واحد ، فضحك الرجل مرة أخرى وقال له « دع الرجل يكسب فالحسنة الخفية فى البيع والشراء »

نعم ايها الشيخ انك تملك قليلا من مادة الدنيا، وانت بها كريم، وهذا سر انطلاق نفسك وخلوك من الهم - حفظ الله عليك هدوءك، وياليتنى كنت مثلك، أو ليتنى أقدر أن أعود الى بساطتك وقناعتك.

٢٣ ابريل . قد تم عزمى على ترك المدرسة برغم امى ورغم ابى لأنهما أبيان. غفر الله لى. ولست آسف على تركى لدروس لم أجد منها معينا على الحياة عند الحاجة ، فأن غرض التربية

أن تعد الناشىء للحياة والسير فيها ، فاذا هى لم تف بهذا الغرض كانت ضياعا للوقت . انى اشكرك ياعزيزى (فهيم) وجزاك الله عنى خيرا ، فأنى لا أقدر أن أجزيك إلا باخلاصى وحبى - إن كان لهذه العواطف قيمة .

٢٧ ابريل . جاءنى اليوم خطاب من (ع) بك لكى احضر اليه وابتدىء عملى كاتبا وأمينا فى (دائرته) ، وإنى مسرور بذلك العمل من وجوه عدة بين مالية وغيرها ، ولا سيما لانه بمدينة دسونس التى أحمل لها أحسن أثر فى نفسى من زمن الطفولة ، ولأنى سأكون هناك قريبا من محل أبى فأستطيع أن أزوره أحيانا وأفهمه حقيقة الحال بنفسى ، ولعلى أفلح فى إقناعه بأصابة رأيى وخطتى . وسأرسل له هذه الساعة خطابا لأعلمه بأنى سأسافر قريبا لتلك العمل . ولأستعدن لملاقاة غضبه ثابتا .

١ مايو . حادثنى صديقى (فهيم) بالأمس حديثا طويلا وهو يأخذ علىّ أنى قليل الشكوى ، لا أثق بأحد حتى به وهو صديقى القديم ، وقال لى « كيف تسكت طول هذه المدة الماضية ، فلا تقول ماعندك لصديقك الذى تعلم مايحمله

لك ؟ وهل من الصداقة فى شىء أن أجهل داخل حالك هذا الجهل ، وألا تبوح لى بسر أو تشكو إلىّ ألما من آلامك ؟ إن تلك قسوة منك وقلة ثقة » . أى أخى ، كيف تقول انك لاتعرف داخل حالى ؟ الا تعرف نفسى وميلى ؟ الست أفضى اليك بما ينبض له قلبى وتتحرك له عاطفتى ؟ اليس فى ذلك كفاية لأن تكون على علم تام بأخيك ؟ ولم أذن ازعجك بذكر آلامى المادية ووصف حاجتى ورقة حالى ؟ انى كلما ضقت بما بى شكوت الى الفضاء والنجوم ، ولا ازال اردد طرفى بين هذا النجم وذلك ، حتى يرتد الىّ بعد قليل وقد تبينت حقارة تلك الحياة وهمومها فأسلو بعد ذلك سلوا كبيراً ، ولكني إذا شكوت ذلك اليك أيها الصديق ، لم تستطع أن تبعث فى نفسى ذلك الشعور ولا تلك السلوى ، وكنت أنا سبباً فى إيلامك عند سماع ما أتألم له . فما فائدة شكوى لا أثر لها إلا إيلام من أحبه ؟ إنى رأيت أن أكثر الناس شكوى أكثرهم حباً لأنفسهم.

٣ مايو. غداً ميعاد السفر الى محل العمل ، وأنا داخل إلى ذلك الميدان بنفس آملة وليت شعرى ما المستقبل ؟...

أقول ليت شعرى ما المستقبل وأنا أكاد أضحك من نفسى، فان الأنسان لا يزال ينظر أمامه إلى ذلك المعنى المتجدد ولا يفكر لحظة فى أن الحياة كلها بعض دورات من سير الفلك .

وقد مررت اليوم بجماعة من المتسولين نياماً على جانب الطريق، وهو طريق من أكثر الطرق ازدحاما بالناس، فحدث أثناء سيرى أن مرت إحدى المركبات مسرعة تحمل رجلا يلوح أنه من الكبار مالا ، فلما قربت المركبة من أحد النائمين أبطأ السائق خوفا أن تمر العجلات عليه لضيق الطريق، فصاح به صاحب العربة مهدداً شاتماً، فالتصق النائم بالحائط والتصقت أنا بها كذلك حتى مر ، وسمعته يقول « وماذا لو مرت العربة على ألف من هؤلاء فتستريح منهم الدنيا » .

نعم أيها العظيم أحسنت ؛ فان ذاك كان يريح ألفا من الخلق من عناء حياة يقاسونها . ولكن من ذا الذى سلب هؤلاء راحتهم وطردهم من بيوتهم وشردهم كذلك إلى جوانب الطرق ؟ وأين ذهب قسطهم من الرزق وهم خلق

كباقى البشر لهم حظ من رزق الأرض ؟ إن هؤلاء البؤساء ما سلبوا ألا ليجتمع سلبهم عند أمثالك ، وما طردوا إلا ليفسحوا لقصورك ، وماشردوا ألا لأنك تأخذ من ثمرات الأرض أكثر مما لك ، فأنت أنزلتهم قسراً عن أقواتهم وكسوتهم ومساكنهم .

أريد أن أبعد عن هذا البلد بلد المتناقضات — بلد الغنى الفاحش والفقر المدقع — بلد الذيول المجرورة والأسمال البالية ، بلد التخمة والموت جوعاً ، والترف المفسد والكد القاتل . ولعلنى أجد الراحة فى بلد سواه .

٥ مايو . هأنا الآن فى مدينة دسونس قرير العين ، فأختى معى بعد فراق طويل كنت فيه يدمى فؤادى أن أرانى لاأقدر أن أكون معها تحت سقف واحد ، لأن جدتى كانت تأبى علىّ أن أنزعها منها . وهاهى أمى باسمة بعد عبوسها الطويل وقد قويت بعد مرضها والحمد لله . وهأنا أرى أمامى الترعة القديمة وأنا جالس على جانب معشب من جوانبها ، والشمس مائلة الى الغرب ، والنسيم يتهادى من الشمال جميلا بارداً ، وورائى متسع فسيح من حقول الغلال

والقطن الجديد — هنيئاً لصاحب بضعة فدادين خالية من قيود ويفلحها بنفسه ويعيش غنياً ، يتمتع بالهدوء فى ظلالها بعيداً عن الترف والحاجة جميعا ، خالصا من مفاسد المدنية وأدوائها .

لم يأتنى بعد كتاب من أبى رداً على خطابى السابق — سامحنى ياأبى فلو عرفت الحق لعذرتنى وحمدت ماكان مني — وأرى أن أزوره غداً لكى اكلمه وأوقفه على كل شيء تفصيلا ، ولعل الحديث يشفى مالا تشفيه المكاتبة .

٦ مايو . سرت اليوم راكباً من دسونس إلى مكان أبى ، فمررت بالأرض التى أحمل لها فى نفسى أجمل ذكرى . ورأيت شجرة الرمان التى كنت أنام تحتها وقت الظهيرة ، وفوقها الزرزور يملأ الفضاء بصفيره الجميل وهو لا يرى بين الفروع ، وأسمعه كأنما أنا أسمع موسيقى من ملاك فى السماء لا تبصره العين . ومررت بحقولها ولا يزال بعضها أشعث أغبر طويل الحشائش وبعضها قد هذبته يد الفلاح فاستعاض عن الحلفاء قمحاً وقطناً . ومررت بالمكان الذى كنت أزرع فيه الفول السودانى وأفلحه بيدى ، وأنا صبى

حتى إذا زاد الحر عدت بنفسى إلى المنزل فتتلقانى أمى بالضحك وتأمرنى ان اذهب لأنظف نفسى بعد عملى الذى لا يليق بى — مررت بكل مكان فى تلك الأرض وكان كل شبر منها يثير فى نفسى معنى وذكرى. ولكنى لم أقم بها فانها الآن ملك يد غير يد أبى، فوا أسفاه! وكفانى انى ملأت صدرى من هوائها وعينى من مناظرها. وما زلت حتى بلغت المكان الذى فيه أبى، وما أجمل مكاناً فيه أبى، ولكنه كان خارج المنزل حين وصلت هناك، وها أنا اكتب هذه الكلمات حتى يعود.

٧ مايو — اجلس الآن لأسقط دمعتين — رأيت أبى وكأنما تركته من سنين وما فارقته إلا أقل من عام. فقبلت يده وما أحلاها من قبلة، ونظر إلىّ نظرة ملؤها العطف والحب والأسف. وقد عرفت اليوم مقدار حبي له وكان قد خفى علىّ حيناً — أنه أبى وهو مثلى وكلانا ضحية لنظام فاسد فى هذا المجتمع، وما أجدرنى بالاشفاق عليه. وقد قابلنى بغير ما كنت أتوقع، فقد كنت أظنه يلقانى لائماً غاضباً، ولكنه قابلنى عاطفا متهللا. فذهب بأكبر عبء

عن نفسى ،ويلوح لى انه راض عما فعلت . والآن استطيع أن أضم ما أكسب على ما يستطيع أن يرسل لى ، وسيكون ذلك كفيلا بحياة طيبة بعد طول أمد الضيق والعسر وشكراً لله .

٨ مايو. أضف صحيفة الى صحف الشقاء . فأن ابى عند ما لقيته اول مرة أول أمس كان يخفى عنى امراً خطيراً ، ولعل هذا سبب قلة غضبه علىّ لتركى المدرسة . وها قد تبينت انى آلة للقضاء أسير معه لغرض سام يخفى على الناس . نعم فقد اصبح أبى الآن على وشك أن يترك تلك الأرض ولا يعلم الخطوة التى تلى ذلك الترك ، ولست ادرى ماذا كان يؤول اليه امرنا لولم يدفعنى الله إلى الرغبة فى العمل ، ويوفقنى الى وجوده فى هذا الوقت – واغرب شىء فى الامر أن عمى هو السبب فى ذلك،ولو سمع أحد الطريقة التى اخرج أبى بها من ملكه لحنق على مُخرجه كائنا من كان فما بالك لو كان هذا اخاه الشقيق .

لقد كان ابى يملك كثيراً ثم عبس له الدهر ، فبقيت له قطعة من الارض نحو افدنة عشرين ، وكانت ملكا لأمى

ولكنها باسمه ضننا بكرامتها أن تنزل فى معترك الحياة المادية، وكنا عند ذلك فى آخر ايامنا فى المرة الاولى فى دسونس. فلم يدر يوما إلا وعمى يزوره ويعرض عليه فكرة الاشتراك معه فى شراء ارض متسعه، وأخذ يؤثر فى قلبه من كل طريق حتى رضى ابى أن يبيع ارضه ويدخل معه فى شركة، واخذ ابى بعد ذلك يعمل جهده فى الاصلاح - وهو رب الفلاحة، حتى اصبحت الارض جديرة بالفخر، وانتظرنا خيرها، وعند ذلك توقف عمى فجأة عن السير معه وأخذ يعاكس كل عمل يقوم فى عزم ابى، حتى انتهى الامر بعجزه عن السير وحده، وضاقت نفسه من المعاكسة، وكره المقام على حال كتلك. وما كان اعظم سروره عندما ارسل اله عمى يوما احد اصحابه يعرض عليه أن يشترى منه نصيبه فى الارض. كل ذلك ولم يقل لنا ابى شيئاً، ولم نعلم مما وقع شيئاً، الا ان ابى كان يقلل مما يرسل لنا، فوقعنا فى أشد ضيق كادت نفوسنا تزهق منه. ثم تمت الصفقة، وماذا حصل ابى من ثمن الارض؟ انه أمر مضحك مبك فى آن! كان الاتفاق على اقساط ثلاثة، لم يدفع منها إلا القسط

الاول - ودفع بين حيوان نفق، وبين دين يحصله ابي واكثره لم يحصل، ومحصول قدر قبل ان ينضج فلم يأت بما قدرله - انني اكاد لا اصدق نفسي، ولكن هذا هو الحق. ولم يستفد ابي من قسطه الاول بشيء يذكر. واما القسط الثاني فلم يحل بعد ميعاده، واما الثالث فمن يدري انعيش حتى يحل أجله؟ فأنه بعد سنين خمس.

ياليت ابي لم يخبرني بشيء، فاني لو بقيت على جهلي لكنت اجد تعلة في الأمل الكاذب، ولكني تركت الآن الى الحقيقة المرة لا يخفف منها خداع مرفه.

١١ مايو. عدت أول أمس إلى دسونس، ولم أجد من نفسي ميلا للكتابة مما مر بي من الغم في هذه الأيام الماضية، وتسألني أمي عن سبب انقباضي، ولكن لا أقدر على إخبارها بالحق، فلتبق هي على جهلها فأن فيه عزاء حرمت أنا منه.

لم يبق لي إلا عملي وأحمد الله عليه، ودوني آمال محطمة أينما أوجه بصري.

١٦ مايو. أن نفسي نزاعة الى الانطلاق، كانما هي مخلوقة من هواء الصحراء ومن حر شمسها المحرقة. فهي تنزع

دائما الى ذلك الخضم اليابس ، ومن لى بان اطيعها فاخرج الى ذلك المتسع فأضرب فيه حيث لا أرى شيئا لوثته الحضارة ، وأعيش هناك بين أهلها الوحشيين، فهم فى عينى أكرم ممن اراهم من اهل تلك الارياف .

ثارت بالأمس مسألة بين الناس ولا حاجة بى إلى ذكرها. فوجدت كلا منهم يقيس منفعته المادية، وما يطلب منه بذله فى سبيلها. ثم يهز رأسه قائلا: «لا إن الامر لا يستحق أن أشترك فيه» ولم يذكر أحد منهم ما يعود عليه أو على الناس من نفع معنوى، ولم يذكر أحدهم كرامة ولا عزة ولا شرفا .

ان اجلاف الصحراء احب الىّ واقرب الى قلبى من أهل تلك القرى ، استغفر الله الا قليلا ممن احب ، فان نفسى ما زالت تحن الى الرجولة فى كل صورها ، وتنفر من التخنث والترف والدناءة وحب الذات والطمع واسر المادة. وتلك الصفات ويا للأسف أقرب الى اكثر سكان هذا الوادى.

إنى اهيم احيانا فى الخيال فاذا أنا فى حلم يقظة ارى نفسى فيه بين اعراب تلك الصحراء البعيدة الاطراف، وأنا واحد منهم، واذا بى كأنى ارعى سواما انتقل بها فى بطاحها،

بين نفح الهواء ولفح الشمس . وكأنى وأنا كذلك اسمع صريخا ينذر بمجىء قوم يريدون الاستلاب، فأتنكب بندقيتى، وارجع الى نجعى، فأجد قومى قد شمروا عن ساعدهم كرجل واحد، ليذودوا المغير عن عرضهم، وليحموا ما لديهم من عيال ومال . فأسرع معهم قائلا

وهل أنا الا من غزية إن غوت

غويت وان ترشد غزية ارشد

وعند ذلك لا يذكر أحد مالا ولا حياة، بل نذكر جميعا عرضا نحميه ، وشرفا نحوطه من القذى، ضننا بشوكةٍ أن تستلان، وبرجولة أن يطمع فيها طامع .

ولكننى لا أستمر طويلا فى ذلك الحلم ، لأن أمى تناديني لأصحو من حامى، وكان نداؤها لى بالأمس « قم فالساعة الآن السابعة يابنى »

ما اشد الاسر والقيد بعد تلك الحرية الخيالية : ولست أدرى ماذا كنت أفعل لو كنت وحيدا . ان أكبر ظنى أن اكون ضاربا فى الآفاق لا يستقر بى مقام حتى أموت .

مساء اليوم. رجعت الى ديوانى المحبوب الذى ارجع

اليه إذا شجيت، فوجدت به قطعة شعر تمثل شعور شاب يمثل ماشعرت به بالامس واليوم وها هى :

خير من غنى على فنن   أيها القمرى
قمت تشكو الوجد فى وهن   فى سنا البدر
نحن خلان على شجن   فاحتمل سرى
أنت من يؤمن فى زمن   قلما جاد بمؤتمن

* *

غنِّ لى لحنا أردده   تشف من سقمى
فالجوى فى القلب يوقده   والأسى يدمى
طال ليل بت أسهده   ثابت النجم
أين صبح كنت اعهده   صائحا فى الليل يشرده

* *

أسلك العمر على ملل   ساريا وحدى
ساريا فى مهمه قحل   فى ربى جرد
لا أرى طبا على علل   من صفا ود
بئس عيش غير محتمل   مقفر من سلوة الأمل

* *

يرتجى قابي السمو الى مرتقى النجم
ضاربا في مجده مثلا للعلا التم
ناصرا للحق ما خُذلا جاحد الضيم
ليس يستبقى الحياة فلا يدرك الاذلال مكتهلا

* *

وافؤادا كنت أحمده في حنا صدرى
حاطه غل نقيده عن مدى الحرّ
طالما همّ فتقعده ذلة الاسر
كيف يسطو الليث تصفده أو يقد السيف تغمده

* *

سوف آبى الذل معتمدا كاسرا قيدى
ثائرا في الجمر متقدا ثورة الاسد
هائما في الافق منفردا فيه عن عمد
قد أرى كالكفر من قعدا في هوان لا يهز يدا

* *

ماحياة الهون في نحس بين أوجاع
سوف تنعى الغد للأمس دعوة الناعى
آخر الحرص الى رمس بعد إطماع
مرحبا بالموت والتعس في حمى العزة والبأس

٢٠ مايو . حل ميعاد القسط الثانى من ثمن الارض، حسب شرط أبى وعمى، ولست ادرى ما سيأخذ ابى منه هذه المرة، فلعله لايخرج من هذا القسط كما خرج من سابقه، لأننا نحتاج إلى شيء من المال، ولأن دين خالى واجب السداد. ولو أنه لم يطالبه. وإن ابى لا بد حاضر الى بعد قليل، إذ أن شرط عمى معه ان يخرج من الارض عند دفع القسط الثانى، إذ قابى وجيع فيحسن بى الا افكر فى شيء، وليكن ما يكون.

٢٢ مايو . جاءنى اليوم كتاب من ابى يخبرنى فيه ان عمى لم يسدد له القسط مع حلول أجله، ولكن طاب اليه ان يخرج من الارض إذ أصبح لا علاقه له بها، فلما راجعه قائلا إنه اتفق معه ان يدفع له القسط الحال قبل خروجه، قال له إنه سيدفعه له بعد قليل، ولكنه اصر على خروجه من الارض، وهاهى درجة جديدة من درجات الشقاء . واليوم قابلنى أحد المعارف وقال انه رأى ولدى عمى يشتريان ملابس غريبة، فمن قبعات الى سراويل للركوب، الى أحذية ذات رقاب عالية . فلما سألهما عن ذلك اخبراه أنهما سيذهبان

ليحلا محل عمهما فى إدارة الأرض وزرعها . حقا انها مكيدة مدبرة، وهذان إبنا عمى يستعدان لحياة جديدة يدخلان اليها بهيئة كاملة وزينة تامة، كأنهما من رواد المستعمرات الافريقية.

أقبل إلينا يا أبى أقبل، فان قلوبنا تتسع لك شوقا وحبا وعطفا . أقبل ياأبى فقد نالك أذى كثير من أعز الناس عندك . ممن طالما أسأت إلى نفسك وإلينا بغير قصد من أجل الاحسان اليه . ان القليل الذى نعيش به يكفى حياتنا جميعاً، ونزيد بوجودك بيننا قوة على احتمال الضيق، فأنت ابى وانت بركة لنا .

احمد الله إذ خالفتك وخرجت من المدرسة لأعمل ، فقد قضى الله ذلك إذ اراد بنا خيراً برغمك وبرغم امى وبرغمى انا ايضاً .

لقد عزمت ان اخبر امى بكل الحقيقة حتى لا يفجأها مجىء ابى .

٢٣ مايو . ما كان اشد كدر امى عند سماعها بخبر الخسارة التى حلت بنا، واراها الآن تظهر الألم بعد انكانت تخفيه فيما مضى، ولها العذر، فانها رأت ان املا كانت تتعامل

به قد اصبح كاذبا ، والانسان يحيا بالامل فى المستقبل، فاذا هو رأى الامل انهار، فكشف له الحقيقه الجاهمة تنظر اليه محاقة، ذهب عنه ما كان يصبره فشعر بالشقاء المحيط به، وذهب به اليأس كل مذهب .

٢٤ مايو . أتى ابى واجتمع الشمل، بعد تفرق طويل ، ولكن على غير ما كنا نأمل ان نجتمع عليه، وانا مع ذلك مغتبط بوجوده بيننا، واشعر من نفسى بسعادة كبرى عندما افكر فى انى اقوم بالواجب علىّ . ومع ذلك اجدنى حزينا من جهة اخرى، وذلك لأنى اعرف ابى واعرف انه متكبر وقد يتألم إذ يرى نفسه قاعداً وانا عامل، ولو عرف الحق لأيقن انه انما يسترد ديناً وليس يتلقى فضلا .

٢٦ مايو . ان وقت الشك اكثر الاوقات شدة على النفس، فاذا ما مضى الشك استقر القلب على اليقين ولو كان مؤلما . فما اعجب قلب الانسان ! لقد كنت اذا فكرت فى مثل الحالة التى أنا بها الآن ضججت وخفت، ولكنى على نقيض ذلك الآن ، اجد حياتى محتملة، وان شئت قل انى اجد فيها شيئاً من السعادة . فالحق ان توقع الخطب اشد

فى خيال الانسان من وقوعه . وقد صدق المتنبى إذ يقول

كل ما لم يكن من الصعب فى الأنـ

فس سهل فيها اذا هو كانا

٣٠ مايو . مات رجل بالامس وهو من اغنياء البلاد، وخلف لابنه ثراء طائلا، وابنه وليد لم يتجاوز الحول الاول من عمره بعد . وبهذا اصبح الوليد رب مائة الف جنيه فى العام الواحد . وهل ذلك الوليد غير امثاله من رضيعى اللبن الذين يفرض القاضى لهم نفقة قرش كل يوم ثمنا لما يكفيهم من لبن البقر ؟ وهل اذا كبر الولد فأصبح صبيا، ايكون غير امثاله من الابناء الذين لم يترك لهم الحظ الا الخبز وعود الفجل وجوانب الجدران فى الطرق ؟ وإذا صار رجلا، أيكون غير سائر البشر الذين يحصلون على قوتهم بالكد القاطع ؟ اذن فبم ميزه القدر منذ ولد ؟ ام هذا من ظلم الانسان نفسه ومن جور شرائع الحياة ؟ ان الانسان يسير على سنن الماضين لا يفكر ولا يصلح ، فأصبحت الحظوظ تصيب عمياء فتظلم اقواما وتحابى قوما ، وهل الحفر السحيقة حفر الفقر الا نتائج لتلك القلال الشامخة ، قلال الغنى ؟ فالعالم

كفتا ميزان ما رجحت كفة إلا على خسران الكفة الاخرى.

أإذا مت أنا شقى من بعدى بضع أنفس، على حين يولد ذلك الوليد ربّما لنعيم حجز له، وصاحب ثروة جمعت من أجله؟ يجب ألا أفكر فى ذلك: وما أجمل الاعتقاد فى وجود الله الذى يخاف على من لا عائل له، ويحمى من لا ذائد عنه. أن ذلك الاعتقاد الجميل يهون على الانسان هموماً كثيرة، وأن الأحمق الشرير هو الذى يسعى ليزيل هذا البلسم عن عقول الناس. ففى الله عزاء البؤساء، وبه تعلة الآملين وله صبر المصابين.

٣١ مايو. رأيت اليوم فتاة صغيرة جميلة تحمل حطباً جمعته من حواف الحقول إلى بيت أمها المسكينة، وكنت جالسا على حافة الترعة عندما ألقت بحملها إلى جانبى لتستريح. فأحببت أن أنظر إلى نفسها كما نظرت إلى ظاهر وجهها، فلم أجد فى ذلك صعوبة لأنها كانت تجيب غير خاشية شيئا وملؤها الثقة بنفسها. وما زلت أحدثها وهى تجيب، غير شاعرة بما يجول فى نفسى، حتى تنبهت أخيراً إلى سؤال جعلها تشعر بشىء من الارتباك، وذلك عندما أخذت أسائلها عن

نفسها ، فانها أخذت عند ذلك تظهر لى الكره فى اجابتها.
ولكنى لم أقصر عن سؤالها ، رغم ما شعرت به من الألم
عندمالوت وجهها معبسة ، وقبضت فمها المليح كارهة نافرة.
فلما أن سألتها « وهل تحبين حياتك هذه مع حمل هذه
الأحطاب ، والسير على هذه الأشواك ، وأما تظنين انك
حقيقة بأن تسكنى اكبر القصور أيتها الفتاة ؟ » لم أجد منها
رداً واضحا ، بل رأيت على جبينها عبسة ، وفى عينها نظرة
غريبة ، أعلمتنى أن تحت ذلك المنظر الجميل نفسا قوية ثوارة.
فلما رأيت الاستياء باديا عليها أخذت ألاطفها وأظهر ان
قصدى لم يكن به شك ، والله يعلم صدق قولى ، ولكنى لم
أجد منها بعد ذلك إقبالا ، بل سارت عني وهى تمسح بقدمها
الصغيرة قطرات الندى المنثورة فوق خيوط العنكبوت.
كأنها عقود اللؤلؤ ، ثم سمعتها عن بعد تنادى فلاحا شيخا
تقول له « صباح الخير ياعم صالح » . واختفت عن عينى.
تاركة خيال وجهها الوضاء ، وعينها السوداء الواسعة ، وأنفها
المستقيم ، ولونها الخمرى ، وفمها — نعم فمها الذى ظهر حينا كأنه
زهرة باسمة ثم إذا هو مثل فم تمثال جامد عندما ولت عنى

وقد رجعت إلى منزلى مملوءاً بصورتها، فطلبت الديوان صديقى وقرأت فيه وهى تلوح لى بين سطوره، حتى عثرت على قطعة كأنها كتبت فى صفتها، ولكنها على زهرة فى الصحراء. وها هى :

بيداء لا يهوى بها ناظر
إلا على صخر هشيم جديب
جر عليها الموت أذياله
وأعولت فيها سموم الجنوب
رمالها كالموج وثّابة
يعلو بها فوق الكثيب الكثيب
والشمس ترعى الارض عبّاسة
شعاعها مثل حرور اللهيب
لا غصن يأوى عنده متعب
يظله تحت لواء رطيب
ولا غديراً تشتفى غله
برشفة من مجتناه الشبيب

* *

رأيت في أثنائها زهرة
مشرقة وسط موات الرمال
تفوح عنها نفحة مثلما
يضوع مسك عن ثياب الدلال
جبينها كالفجر ذو بهجة
كأنه معقود ماء زلال
تميل ميل الخود في خطرها
تمثلت فيها معاني الجمال
يا زهرة عهدي بأمثالها
في كل بستان كريم الظلال
ما كان مثواك سوى روضة
بين الندى العذب وريح الشمال

* *

الزهرة

قالت وقد أزعجها مقدمي
وأنكرت مني حديث الفضول

ما ذلك الروض وماذا الندى
أراك ترميني بقول ثقيل
أني أحب الشمس في حرها
وأستلذ الريح ذات العويل
وقد ألفت العيش فيما ترى
فليس يرضيني به من بديل
تفتحت عيني في ضحوة
وسوف أغضيها بُعيد الأصيل
وفي غد امضي كما قد مضى
من قبل ازهار الزمان الطويل

* *

يا زهرة البيداء عفواً فما
رأيت مثل اليوم كذب الظنون
عداك همّ العيش يا ليتني
أنسى كما أُنسيت تلك الشجون
من لي بأن أُبرأ من علتي
فأشتفي من داء هذا الفتون

عرفتِ فيما عشت ، فى ساعة
ما اعجز الخلق طوال القرون
يا ليتنى مثلك فى مهمه
حييت حينا وادعا فى سكون
حتى اذا ما فات يومى ذوى
عودى فأمضى لا تراني العيون

٤ يونيه . أنى انسى الحقيقة أحياناً فأسعد فى النسيان ، حتى اذا ما عاودتنى الذكرى عدت الى شقائى وآلامى . وها أنا ارى الحقيقة ماثلة امام عينى محملقة إلى تكاد تصعقنى بنظراتها . ان الأيام تمر مسرعة ولا أرى امام اختى باباً الى السعادة المرجوة لمثلها . وما أضيق صدرى كلما فكرت فى ذلك، فانى أشعر عند هذا أن السماء تكاد تنطبق علىّ وبأن الجو المتسع ضيق ثقيل الهواء . أين الآمال التى كنا نبنيها لهذه المسكينة التى يجرها البؤس معنا إلى هوة رغمها ؟ لقد مر علينا وقت كنا نعتقد انها ستكون زوجة لشاب من اكبر الشباب همة وقدراً ، وكنا نضن بها على من نراهم اليوم أكبر من أن تكون شريكة حياتهم .

ولقد كاشفت والدى بما فى نفسى عندما زاد بى الهم على قدر احتماله وحدى، فرأيته يهتز لقولى أكثر من اهتزازى أنا له، ولكن ماذا يستطيع ؟ أيقولون فى العالم عدل ؟ واقلباه !

٨ يونيه . لم أر أبى يوما أشوق الى العمل منه هذه الايام، وكأنى ألمح منه استكبارا أن يبقى قاعدا ـ أن أبى سخىّ النفس كريم القلب، والسخى يجود بكل شىء ألا أن يبذل شيئا من كرامته، فان الحياة نفسها تهون دون ذلك . لقد كان أبى لا يهتم كثيرا للمادة، وقد ورثت كثيرا من تلك الصفة منه . وقد ضحى بكثير من مصلحته فى سبيل من أحبهم، كأخيه سامحه الله، ولكنه لا يقدر أن يرى نفسه متكلا على سعى أحد، ولو كان ابنه .

١٠ يونيه . ظهر لى اليوم السر الأكبر فى شدة حب أبى فى العمل . فانى اشعلت فى قلبه نارا محرقة عندما ذكرت له اختى والأمل الذى كنا نبنيه لها فتهدم قبل أن يتم، وقد لمح لى بذلك عند حديثه ليلة الأمس ـ لقد أخذ ابى يسرد علىّ تفصيل ماصنع معه عمى حتى كدت أبكى، وقال لى أخيرا وهو محمر الوجه رغم صفرته الطبيعية « أنه طردنى

يابنى ناسيا كل ماصنعته له » ، فاما أن رأى ماعلى شفتى من القول قال لى « ولكنى اقول لك ذلك لتأخذ منى درسا فى الحياة ، ولتعلم مابها ، حتى لاتغتر كما اغتررت أنا بالمعانى الخلابة، معانى التضحية والايثار . ولكن لابد أن تعرف يابنى أنه عمك وأخى ـ سامحه الله . » ـ لاتؤاخذنى ياأبى إذا قلت إنك لاتحسن صناعة الحياة بين هذا الخلق، وليس ذلك ذما بل هو عندى اكبر وصف للنفس الطيبة .

١٢ يونيه ـ لقد توفق أبى بعد بحث طويل الى مورد للكسب وهو تأجير أفدنه بجوار المدينة، ويريد أن يذهب اليوم ليراها، وهو يكاد لايسكت لحظة عن السعى الى العمل.

مساء اليوم . عاد أبى من رحلته لمعاينة الارض وكله سرور،فهى لاشك صفقة رابحة. وقد قابله الأهالى وكلهم يود أن يؤجر منها شيئا بأجرة لابأس بها ، فحبذا لو تمت فتروى نفوسا ظماء . ولكن لايزال ينقصنا المال وهو لازم لكى تتم الصفقة . وأعتقد أن هذا ممكن ، اذ ان اخى فهيم لن يتردد فى مساعدتى،واظنه يستطيعها، فسأرسل اليه غدا فى طلب ما نحتاج اليه ، وسأرجوه أن يكون شريكا فى

تلك الاجارة .

٢٠ يونيه . جاءنى رد فهيم وهو يعد بالمساعدة فى حالة طلبى لها، فشكرا له مرة اخرى . انى كلما ذكرت فهيم ذكرت ايام التلمذة والصبا الاول، وتخيلته وهو الى جانبى فى كل جولة وكل مجلس، لاتختفى عن أحدنا نبضة من قلب اخيه ولا حركة فى قرارة نفسه ، وأرى أن عهد الصبا هو عهد تكوين الصداقة الصحيحة الخالصة ، وأحر بالناس ألا يضيعوا تلك الأيام الطاهرة تمر بغير أن يعدوا للحياة عدتها من اتخاذ صديق وفى ، فأن اصدقاء الحياة المادية أنما يلتصقون بظاهر المرء، وأما صداقة الحياة الأولى فلصيقة بالنفس ومنبعثة من الحياة ذاتها . ولكن أمرا واحدا يعكر علىّ صفاء تفكيرى فى ذلك الصديق، وهو انى لا أذكره ألا وأذكر تكرمه علىّ ومساعدته لى ووقوفه الى جانبى بغير ان أصنع له شيئا نظير ذلك، والذى يزيدنى به اعجابا انى أراه قانعا بموقفه منى، راضيا بأن تظل يده العليا لا ينتظر منى جزاءً . ويلاه! إنى أتألم وأغبط نفسى به فى آن واحد ، وليس لى ما أقدر أن أكافئه به ألا انى أحمل بين جنبىّ قلبا يذكره عند كل

نفس ، ويعرف له جميله ، ويتمنى لو استطاع أن يملك ما يخدمه به ، وحسب المُـقل مثل ذلك .

٢١ يونيه . ذهبت عقب تفكيرى فى فهيم ليلة الأمس الى مضجعى موزع القلب ، فلما ان غفوت رأيت فيما يرى النائم كأنى بعد طالباً بالمدرسة ، وأخذت مناظر ذلك العهد تمر على صورة صورة ، ولم تكن صورة منها غير حقيقية بل إنى استعدت أشياء كنت قد نسيتها كل النسيان ، وما أغرب الأحلام ! فكأن ذلك الحلم أعاد من عرفتهم صغاراً فى المدرسة ، وأرجع الى الذهن صورة كل منهم اذ كان صغيرا . وقد نهضت اليوم من نومى والصورة منطبعة فى ذهنى واضحة فاستطعت أن اقرن تلك الصورة الماضية باشخاص هذا اليوم فماذا وجدت ؟ وأى فرق تفعل السنون ؟

لقد كان من بيننا قوم كنا نراهم نابهين عقلاء ، كانوا يشبهون الرجال ، وكانوا فى نظرنا من خير الناس عقلا ، فاذا هم الآن من أخمل العاملين وأقلهم فى الحياة غناء ، وكان فينا قوم كنا نراهم صغار العقول ، من ذوى اللعب والخفة ، فأصبحوا اليوم وهم من رجال العقل والرزانة والصلاح . حقا ان الطفل

فى نفسه مخلوق خاص بنفسه، ويجب أن يبلغ كمال الطفولة من لعب ولهو وخفة، قبل أن يدخل الى دور الرجولة. وإن الطفل الذى يكون رجلا قبل أن يدرك كمال الطفولة لن يكون رجلا كاملا كذلك. فاذا اردنا ان يكون لنا رجال من ذوى القدرة، فلا بد لنا أن نفكر أولا فى أن يكون أولادنا اولادا بلغوا الكمال فى طفولتهم ـ أولادا مرحين يلعبون ويخاطرون ويجرّبون بيدهم العمل، ويفتحون أعينهم الى الهواء الطلق والطبيعة القوية. ففى ذلك الاحتكاك بين الطبيعة والنفوس تتولد القوة على البقاء فى نضال الحياة. لقد هممت ان أقول رأيى هذا للناس، ولكن لا أظن أحدا يعنى برأى مثلى. فلأسكت ابقاء على ماء وجهى.

ارسل عمى لابى قليلا من قسط الارض، ووعده بان يعطيه الباقى، وهو الأكثر، قريبا ـ أما انا فلا أظنه يفعل.

٢٥ يونيه. لم يقدر أبى أن يتفق مع الرجل صاحب الارض على الشروط التى يمكنه أن يستأجر بها، وقد اهتم لذلك كثيرا.

ان ابى يكبر فى عينى كل يوم، وأنقص أنا فى عين نفسى

كلما تذكرت أن الضيق كاد يوما يحرفني عن أكباره بعض الشيء - سامحني ياأبي فانها زلة من زلات الشباب الجاهل. أن أبي لا يمل العمل على كبر سنه، فهو يقضي في العمل اكثر النهار ويتأخر في الليل على غير عادته، وأني أخشى عليه من ذلك ولكنه لا ينثني، ولا يجيب ملاحظتي ألا بابتسامة خفيفة. ويخيل الي أن حبه الوالدي قد ملك عليه نفسه منذ ذكرته بأمر أختي، ساعده الله. وأني أكاد الوم نفسي على قولي الذي أثاره تلك الثورة، فلا يكاد يسكن، فبالأمس كان في دمنهور، وسيذهب بعد حين الى كفر الشيخ ليرى أفدنة هناك بلغه أنها جيدة.

اول يوليه. قبلت يد أبي إذ ودعته على المحطة، وهو ذاهب الى كفر الشيخ، وكأني لم ألمح نحوله الا عند ذلك. فتألمت ألما كبيرا، اذ يذهب هذا الشيخ الضعيف وحده الى براري تلك الاقاليم، وهو يشكو في فخذه ألما يعاوده كلما أجهد نفسه في السير ولو قليلا. وقد وجدته يجتهد أن يخفي عني كل تألم جسدي، خوف أن اثنيه عن العمل. اني كلما تذكرت وجهه الشاحب المطل من النافذة، شعرت

فى قلبى بوخزة كوخز الحراب ، ولمت نفسى اعظم اللوم على أنى لم أذهب معه ، فأكون قريبا منه فى تلك الرحلة الشاقة، التى لابد يصيبه منها تعب عظيم . وأتذكر الآن دعاءه ، فيذوب قلبى ـ لقد رأيته هذين اليومين ينظر الىّ نظرة لها معان أحس بها ولا أقدر أن أفصح عنها . وأقرب هذه النظرات كانت اليوم فى الصباح ، اذ أعطيته ماجاءنى من الوظيفة ، فأنه قال لى عند ذلك ناظرا الىّ تلك النظرة الناطقة « لقد قعدت يابنى وانت تكد بدلى ، وما كنت اظن أن الله سيلقى عليك هذا العبء فى هذه السن ، ولكن هكذا شاء الله ، ولعلك تستطيع ان تقيم بناء متهدما » . فقلت له « والله أنه يؤلمنى اشد الألم انى لا أقدر على أن اجىء بما ترضى له نفسى ، ولو ساعدنى الحظ على ما احب . . . . » وهنا خنقتنى عبرة زادتها نظرته حرارة ، فمسح بيده على رأسى وقال لى « بارك الله فيك يامحمد ، فان قليلك كثير لدىّ ياولدى » .

أحبك ياأبى وأعظم فيك ذلك الكبر ، ابقاك الله بركة وسلاما لقلوبنا .

٤ يوليه . عاد أبي مغتبطا بما رأى ، وأخـذ يصف الأرض وحسن موقعها، وقرب محلها من المحطة الحديدية، وهي فوق ذلك ارض موقوفة وناظرة الوقف سيدة يمكن أن تؤجرها بشروط هينة ، ولاسيما الشروط المالية ، ولعلها تكون من حظنا . ولكنى رأيت على وجه والدى أثر الشحوب أكثر من المعتاد ، وهذا ماينفطر له قلبي ، فان الاجهاد يضر بمثله وهو لا ينثني .

٧ يوليه . اكثرت من القول لوالدى أن يدع كل شيء يسير سيره ، ولا يهتم لشيء أكثر من الواجب ، وذلك لانى رأيته كثير التوق والاهتمام لما عساه يحدث . وقد وعدنى أن يعمل بمشورتى ، ولكنى متأكد من أنه لن يعمل بها ، لأن حبه الوالدى قد غلب على كل أمر آخر .

واليوم أرسلت الى فهيم أسأله أن يرسل ألىّ رأيه فى الأشتراك فى هذه الأجارة ، وأعتقد أنه سيجيب ماطلب اليه ، مدفوعا بحب مساعدتى لا برغبة الربح ـ جزاه الله من صديق كريم .

١١ يوليه . يقول ابى لو نجحت هذه الصفقة لوجب

الانتقال الى كفر الشيخ ، ولكنه يرى ان ذلك الانتقال يجب الا يكون لأحد سواه ، فيريد أن يذهب وحده ويعيش هناك كذلك ، حتى يقدر على ملاحظة الأرض ، وادارة أمورها عن قرب ، وهذا انكار للنفس لا يزيد عليه ايثار . ولكن من القسوة ان اطيعه فى ذلك ، لانه كبير السن والوحدة مستحيلة على مثله . انه يحتج بانه اعتاد تلك الحياة ، لأنه قضى فيها زمنا طويلا من عمره فلا يجدها تشق عليه ، ولكن ذلك لن يكون ، ولا سيما لانه اصبح غيره بالأمس لما أراه فيه من الضعف .

١٥ يوليه. جاء اليوم رد فهيم وهو يعتذر عن تأخره بأنه كان غائبا عن القاهرة مع أبيه بضعة أيام . وقد صدق ظنى فيه كالعادة .

وخاطبنا ناظرة الوقف ، وسيأتى وكيلها الينا اليوم لنتفق على الشروط . ما أفكه أخى فهيم ، فهو لا يحب أن يجعل كتبه كلها مادية ، لما يعلمه من كرهى لذلك ؛ ويميل أبدا الى أن يهدينى فى كل كتاب بطريفة من طرائفه ، ليزيد من لذتى بقراءته . وكانت كلمته هذه المرة على احتفال

قائم بالقاهرة ساعة كتابته للخطاب ، وهو احتفال يوم ١٤ يوليه ، الذى يقيمه الفرنسيون فى مصر . فأنه أخذ يصف لى الاحتفال وما فيه من أنوار وزينات ومناظر ، وبعد أن انتهى من ذلك قال :

« وبعد ، فيا محمد ألا ترى الأمر مضحكا ؟ هذا عيد الحرية قد أقيم بمصر ، فلماذا تشكو من فقدانها ؟ أنك صعب الرضا - ولكن اسمع . ماذا تظن أن ميرابو يقول لو أنه رأى ذلك الاحتفال ؟ أكان يعجب منه أم يسخر ؟ لا تجبنى فأنا لا أريد جوابك ، ولا مواخذة فى ذلك الجفاء ، فانما أنا أسأل غير منتظر ردا . وماذا يكون حال من سقط من الفرنسيين فى مثل ذلك اليوم ، لو انهم نهضوا من قبورهم ، ورأوا تلك الذكرى تقام ليومهم ؟ لا تجب أيضا . أن كل الأمور تنتهى بزينة وأغنية ، أليس كذلك ؟ اضحك ، أضحك ياشيخ ، وقل كما يقولون « لتحيي الحرية » وتخيل أنك من القوم - هنيئا لهم عقولهم ، والعاقبة عندك يامحمد . ألا تفيق من عبوسك ؟ وتحياتى اليك » .

ماأحب قولك ألى نفسى يافهيم ! ان كل كلمة منك

تثير فى قلبي معانى تدق عن الفهم .

١٨ يوليه . أتى الوكيل الى أبى كما اتفقنا مع الناظرة، وقد كتبنا عقد الأجارة وانتهى كل شىء ، وموعد دفع التأمين يوم ٨ أغسطس ، وسأرسل لفهيم بذلك . وليس أحد اكثر سرورا بذلك النجاح من أمى وأختى ، فأنهما تصوران صورا بديعة لما يعود علينا من الخير من وراء تلك الصفقة . وقد دب قولهما فى نفسى فأعدانى ، فأصبحت أنا أيضا خفيف النفس مسرورا .

١٩ يوليه . أجد فى نفسى سرورا هذين اليومين ، وارى الآمال تجيش فى قلبى ، فتصور لى سعادة المستقبل وراحته ـ وقد قضيت اكثر وقتى فى داخل منزلى وسط أهلى ، والبشر يعلو وجوههم جميعا ، وأخذت اختى كلما دخلت علىّ تحدثنى حديثا جميلا عن الصيف الآتى ، وما سنجد فيه من لذات ومسرات ، فاقترحت علىّ الذهاب الى شاطىء البحر ، واخذت تذكرنى بسعادة الأيام الغابرة التى قضيناها هناك إذ كنا صغارا ، والحق أن تلك الذكرى لاتزال فى نفسى زاهية جميلة . ولكنى جعلت أضحك فى

نفسى منها ،لأنها تبنى فى الخيال قصورا قبل أن يتم الحصول على شىء من مادتها ، ولم اشأ ان أعكر عليها صفاء خيالها ، ولا ان أنغص عليها نعيم وهمها ، فتركتها تصف ماتصف من خططها للصيف المقبل ، وكنت أوافقها على ما تقول ، حتى يعوضها الخيال شيئا من ألم حقائق الماضى والحاضر .

٢٠ يوليه . جاءتنى حواله تلغرافية من فهيم ،وتسامت ما أرسل الى وسر أبى من ذلك . وسنذهب بعد قليل لرؤية الأرض معا. ويسرنى أن انتهى عمل كنت أراه حملا ثقيلا، لأن الانتظار مؤلم لمثلنا ، وقد وضع أمله فى العمل المنتظر.

٢٢ يوليه . أخرج الآن وحدى الى شمال المدينة ، بعد طول هذا الاحتجاب الذى منعنى عن ان أروى نفسى بتلك الطبيعة الحلوة القوية . أخرج الى الحقول الخضراء ، والماء الجارى ، والنسيم اللطيف ، وأمتع ناظرى بالتطلع الى السماء البعيدة ،والنجوم اللامعة التى يتمثل فيها معنى الابدية والدوام ، وأنا اكتب هذه السطور فى كوخ خفير السكة الحديدية ، وهو صديق من اصدقائى ، أذهب اليه فأقطع طريقا طويلا ، ثم أسمر معه حينا فأجد فى سمره لذة أعظم

مما أجد فى حديث المهذبين . أنا مالى تأخذنى هزة شديدة كلما خلوت فى تنزهى هـذا ؟ فأن الحياة تبدو لى عند ذلك مجردة من زخارفها وغشاواتها ، فأرى زوالهـا ، وحقارة ما فيها من غنى وجاه وسلطان ، وأرى حقيقة معنى المساواة بين الناس ، وأن من نسميهم الكبار ذوى الحول والطول ، ما هم ألا رجالا قد طلى ظاهرهم بغشاء من نسيج الانسان . ولو خرج الخلق جميعا الى البداوة الأولى ، وأزيحت عن العالم تلك الحدود والقيود التى تغل الناس ، لكان للعالم شأن آخر . أنا اكاد ألمس بيدى معنى الحياة ولكنى لا أستطيع أن أعبر عن ذلك المعنى ، وغاية ما اقدر على الافصاح عنه أنه لاقيمة لما اعتاد الناس أن يقدسوه فيها من مال وجاه ، وأن العبرة فى التفاضل بين الناس بما عند كل منهم من صفات الرجولة والشرف ، ولكن ذلك مقياس لايرضى به كثير غيرى ، لأنهم اعتادوا أن يذهبوا وراء المظاهر البراقة والزخرف الكاذب ، فهم يعبدون الحقير اذا اكتسى بما يبهر عيونهم – حقاً إن الانسان ما زال هو الانسان البدوى الجاهل ، ولو تغيرت مظاهر جهله . أليس هو نفسه الأنسان

الذى كان يعبد الحيوان كالعجل والكبش مادام قد اكتسى بكسوة مذهبة تأخذ بالأبصار ؟

٢٥ يوليه . أجدنى هذين اليومين كثير الراحة والاطمئنان ، وأخرج كل يوم إلى الترعة فى شمال المدينة ، فأسير وحدى نحو ساعتين ، حتى أصل إلى كوخ صاحبى الخفير ، ثم أعود وكأنى لم أسر إلا دقائق ، وتشغلنى طول هذه المدة ذكريات الماضى ، وما نحن فيه الآن ، وما عساه أن يكون فى المستقبل ، والحق أنه لو فكر الأنسان قليلا لرضى بكل ما كان ، فان عقبى كل شىء واحدة ، وآخر تلك الحياة يلتقى الناس جميعاً .

ألست سعيداً ؟ — ولم لا اكون كذلك ؟ وإن من يرضى بما هو فيه لسعيد . وما السعادة ؟ إن الانسان يفكر فيها كثيراً بغير جدوى ، وعندى أن السعادة شىء سلبى لا إيجابى ، أعنى أنها ليست حالة بعينها ـ فليست فى القوة وليست فى الغنى ، ولا فى الجمال ولا فى الشهرة ، وليست فى مظهر من مظاهر الحياة ، وما هى إلا السلامة من آفات الحياة وآلامها . فاذا خلا المرء من مقلقات راحته

الداخلية ، واحتفظ بخلوه واطمئنانه كان سعيداً ، وذلك بأن يكون بعيداً عن الشر والنزوع اليه ، عالياً عن مرتبة الأحقاد البشرية الحقيرة والأطماع الدنيئة . وأساس الخلو من كل هذه المقلقات أن يزهد فى مادة الدنيا ، ويروض نفسه على القناعة والعفة . فالسعادة على هذا سلبية ، وهى الخلو من المكدرات المادية والخلقية ، والأبقاء على صفاء النفس واطمئنانها . وأنى قد تمر بى أوقات كوقتى هذا ، الآن ، اكون فيها على مثل تلك الحال من الصفاء . ولقد صدق من قال ان السعادة أقرب إلى الفقراء منها الى الأغنياء ، فليهنأ المساكين ذلك : فان الطبيعة خلقت لهم من حرمانهم نعمة ، ولم تضن عليهم بالمرفهات .

٤ اغسطس . ذهبت مع أبى لرؤية الأرض ، فوجدتها على مثل ما وصفها ، ولكن ينقصها شىء واحد ، فهى ليست مثل الأرض الأولى التى أحببتها ، وليست بهاجهات شعثاء وحشية مختلفة المنظر بين مفلوح وطبعى ، وليس فيها ريح الطرفة ولا لون نوّار العاقول ، وليس فيها ذلك النسيم الجاف ، ولا الزرزور الأغن فوق عود الرمان . ولكن

أظن أن الذكرى هى التى تعطى تلك المناظر السالفة جمالاً فى خيالى اكبر من جمالها الحقيق ، ولعل الأرض الجديدة بعد المعاشرة تثير فى نفسى ما كانت تثيره الأولى من المشاعر — أن قلب الانسان عجيب ، فهو لا يقتصر فى الحب على بنى آدم ، بل قد يحب الحيوان وقد يحب الجماد كأنما هو صديق له ، وهل وقوفه بالاطلال إلا نوع من الحب ؟ نعم ولكنه حب لما بالمكان من الذكرى فيصبح المكان رمزاً ويحل فى القلب محل ما كان به .

أجد من نفسى هذه الايام قلة ميل إلى الكتابة ، فانى كنت اجىء إلى كراستى هذه لاكتب ما يجول بنفسي ، كأنما أنا أشكو اليها ، ولكنى الآن لا أجد من نفسى هذا الباعث نفسه . وأظن سبب ذلك انى استشعرت شيئاً من الراحة بعد طول القلق والاضطراب ، فكنت فى الماضى اجىء الى كراستى لاشكو لها ، وانا الآن أجىء إليها لاحادثها وافكر بين سطورها ، وشتان بين شعور قلب ملتهب وشعور عقل مفكر .

٧ اغسطس . لو كنت اعتقد فى الهاتف لقلت انه قد

هتف بى اليوم . فكأنى سمعت صوتا يقول لى وأنا بين النائم واليقظان « ان والدك كبير السن يضعفه الكد » . فكنت افكر بعد ان انتبهت مذعوراً ، ثم طردت عن نفسى الفكرة ، ولكنها عادت إلىّ برغمى ، ورأيت صدق الهاتف مذ تمثلت صورة ابى وهو عائد من كفر الشيخ .

أرى بقلبى قلقا كأنما هو يتوقع شيئا ، ولكني اهوّن عن نفسى واقول ان هذا شعور الانسان دائما اذا اقبل على انتقال جديد كالذى انا مقبل عليه — هكذا اقول لنفسى ، ولا يذهب عنى ما اشعر به من القلق . ولا شىء اليق بى من ان اترك التفكير فى هذا ، واجعل الامر لله يقضيه كما يشاء ولا معقب لحكمه .

8 اغسطس . ان والدى ينادينى لنذهب لمقابلة الوكيل واعطائه التأمين فى وقته ، فاجعلها اللهم صفقة رابحة مباركة.

ان ابى ظاهر الضعف ، ولو انه يخفى عنى التعب اشفاقا. وان قلبى ليتمزق إذ اراه مضطراً للعمل فى هذه السن ، واذ ارانى مضطراً لمساعدته ، غير قادر على الاضطلاع بالحمل وحدى ، ويا ليتنى ! وهل تفيد يا ليت ؟

١٠ اغسطس . انتهى أعداد كل شى ، وسنسافر اليوم ألى كفر الشيخ ، ولست أجد من نفسى ارتياحا الى ذلك الانتقال ؛ ولا تزال نفسى منقبضة كأنها تتوقع شرا ، ولكن هذه عادة النفس عند الانتقال دائما ، وأظن أنى اذا استقررت مرة اخرى عاد ألىّ الهدوء والبشر الذى شعرت به عند بدء هذه الأجازه . ولعل ماأشعر به من الوحشة راجع الى تفكيرى بالأمس فى كثرة التنقل وأثرها فى الأنسان ، اذ انى اخذت اقول لنفسى إن الذى لا يقيم فى جهة واحدة لا يعرفه أحد ، ويعيش غريبا فى كل مكان ، ولا يجد الحب وهو أثمن مايجده المرء فى حياته ، لأن الحب نتيجة الألفة والمعاشرة الطويلة ولا تطول المعاشرة مع الانتقال. فلا غرابة فى انقباض نفسى ، لأن هذا التفكير وحده كاف لتعكير كل صفاء . ويجب علىّ أن أقاوم ذلك الميل ، وقد جربت أن الأنسان يقدر على أحلال السرور فى نفسه محل الوحشة والانقباض ، أذا هو تكلف المرح والخفة ، فلا يلبث أن ينقلب تكلفه شعورا حقيقيا بالانشراح ، فلأصنع هكذا .

General Organization Of the Alexan-
Bibliotheca Alexandrina

١٥ اغسطس . تركت أهلى اليوم فى كفر الشيخ ، وتركته

أبى يتكلم مع المستأجرين فى قيمة الأجرة وعدد الأفدنه التى يطلبها كل منهم ، وأراه كثير الحركة ، حتى لقد يخيل لى أحيانا أن فى حركته شيئا من الاضطراب على غير عادته ، فهو فى العادة ساكن هادىء الحركة . وأراه يزداد فى عينى شحوبا كل يوم ، ولكنى آمل أن يزول ذلك كله بعد أن يستقر ويطمئن ، فأنه كله ناشىء من التعب والقلق. أجد نفسى كأنى فاقد شيئا ، فبالى مشتت ، ويخيل لى أحيانا أنى نسيت شيئا لا أذكر ماهو ، فألمس جيبى ، ولكنى أعود الى نفسى ، فأعلم أنه الخيال الذى يجعلنى أظن ذلك وليست الحقيقة . ولا أدرى لهذا التشتت من علة ، ولعل السبب هو أنى لا أجد أبى وأمى وأختى بجانبى .

١٩ اغسطس . كنت مبالغا فى الاعتداد بنفسى ، أذ ظننت أنى أقدر على الأقامة وحدى ، فأنى أشعر بضيق شديد من تلك الوحدة ، ويزداد عندى الشعور بالتشتت الذى بدأ بى منذ تركت أهلى بكفر الشيخ ، ولكنى أحمل كل هذا راغبا ، لأنى أستطيع تحمل المشقة اكثر من أبى . مسكين ياوالدى . هل تحملت مثل ماأنا فيه الآن كل تلك

السنين وأنا لا أدرى ؛ لقد قاسيت ياأبى كثيرا بغير علمى .
وأكبر ما أكبره فيك أنك لم تظهر يوما أنك تقاسى شيئا .

سأرجو (ع) بك أن يأذن لى فى أسبوعين اقضيهما مع أهلى بكفر الشيخ ، وأظنه لن يمانع فى ذلك ، لأنه يرى مقدار ما أبذل فى عمله من الجهد ، فانى أقوم بعمل يقوم بمثله ثلاثة مشتركون في دائرة (الباشا) جاره ، وهو فوق ذلك رجل كريم النفس ، وصديق لوالد أخى فهيم ، وأراه لا يرد لى طلبا كأنما هو موصى بذلك .

٢١ اغسطس . أجىء الآن من المرور فى الارض ، وقد صدق ظنى فى أن المعاشرة ستحبب الىّ الأرض الجديدة تدريجا ، فقد بدأت اعرف اطرافها ، واجد فيها جهات وحشية ، تميل لها نفسى ، لأنها مثل التى تركناها فى الأرض الغربية الجميلة . وقد وجدت هنا لحسن الحظ بعض شوك العاقول بزهره الجميل ، وسمعت الزرزور يصيح نفس صيحته القديمة . واجمل بقعة فى تلك الارض ساقية تحيط بها اشجار لبخ وجميز ، فتظلل عليها ظلا جميلا ، تتخلله الريح وقت الأصيل ، فيكون المجلس تحتها جامعا من آيات الحسن

كثيراً ، وقد اخترت هذا المكان لأذهب اليه كل يوم بعد تجوالى ففيه مراح للنفس .

٢٢ اغسطس . قد انتهى تقسيم الارض بين الزارعين، وعرف كل رجل الجهة التى سيزرعها ، وسيشرع أبى فى كتابة العقود عن قريب ، ونأمل أن يكون لنا من وراء هذا العمل ربح كثير هذا العام ، وسيكون الربح فى الأعوام الآتية أعظم .

ما أحمق هذا الرجل المستأجر القديم للأرض، إذ يزعم أنه سيخرجنا منها ، ويلوح لى أن حزنه على لقمة ضاعت منه هو الذى يدفعه الى قوله . أن الفلاحين مسرورون من شروطنا ، فهى خير لهم من شروطه ، لأنه كان لا يترك لهم فرصة فى ربح إلا القليل الذى لا يفيد . ويلوح لى أيضاً أن وكيل الناظرة رجل سىء النية ، فهو يلمح لى من طرف خفى أنه قد اخطأ مع المستأجر القديم ، فلم ينذره بتسليم الارض حسب الشرط ، وكأنه يطلب منى أن افكر مع والدى فى حل المشكلة على تعويض نأخذه نظير فسخ الأجارة برضانا، ولكن ذلك لا يكون، فأذا شاء المستأجر

القديم عاد عليه فقاضاه . أرى والدى قد زاد تعبه ، وقد اشرت عليه بالراحة ، ولاسيما وأنا موجود محله ، ولكنه يحاول أن يستمر على العمل. ماأشجع نفسك ياأبى واكرمك! أنى لم أدرك إيثارك حتى تفتحت عيناى ، وقدرت أن افهم ، فأنه إيثار لايدركه الكثير لأن صاحبه لايتحدث به .

٢٥ اغسطس . لايزال الوكيل يردد قوله الاول ، ولعله يريد منى رشوة ـ ماأصعب معاملة الناس ! فقد كنت أظن أن ذلك لايحتاج الى شىء سوى الاستقامة والصراحة والصدق ، ثم وجدت أن الأمر غير ذلك ، وأن معاملة الناس فن من الفنون ، وصناعة من الصناعات المعقدة التى تحتاج الى الخبرة والتجربة ، أن أبى دائما يوصينى بأن ألين جانبى ، ولكن طبعى غلاب ، وسأحاول أن اعمل بما يريد .

٢٩ اغسطس . بدأت اخاف لأنى مضطر الى السفر بعد قليل ، واجد والدى قد زاد ضعفاً رغم راحة أيام ، وقد بدأ الوكيل يتنمر ويعاكس ، واخذ المستأجر القديم يهدد ، وأخشى أن أنكص أمامهما فيطمعا ، ولاأجد وسيلة امامى

استطيع بها أن اتفق معهما ؛ لأنهما يريدان رجوعا في الاتفاق وهذا لن يكون .

رب ارشدني فأني مضطرب صغير ـ لقد ادركت أني صغير الآن ، واني لاأقدر أن احل محل أبي . شفاك الله ياأبي عاجلا .

٣٠ اغسطس . انا أخدع نفسي بالتعلل ، والحقيقة أن ابي مريض ، وليس الذي به تعبا يزول بالراحة ، فأني اراه يضمحل يوما بعد يوم ، وقد جاء اليه طبيب واعطاه دواء أسأل الله ان يجعل فيه الشفاء والعافية .

أنا مضطر للسفر بعد غد ، ولابد أن اترك أبي وحده مع أهلي هنا بكفر الشيخ ، واراني أختلج من الخوف ، ويكاد قلبي ينخلع كلما تصورت تلك الحال . فأنا وحدي في دسونس لايستقر لي بال ، وابي وحده هنا مريضاً وليس حوله إلا امي وأختي ، وهما تحتاجان إلى من يقوم بحاجاتهما ، ولست أدري ماذا اصنع ، ولاعلم لي بما سيكون ، ويكاد ثقل حمل الهم ينوء بي .

كلما فكرت لم اجد غير احدى وسيلتين : فأما ترك

الوظيفة التى انا بها والتفرغ للعمل هنا بدل ابى ، واما ترك الاجارة والرجوع بأهلى الى دسونس كى اكون حاضراً إذا دعا الأمر الى معين. ولا أظن أن ابى يقدر على ماتتطلبه الأجارة من مراقبة ومحاسبة مع مرضه، ولا سيما أن هذين اليومين المقبلين أول سنة الزراعة. ومما يزيد فى شدة الأمر معاكسة الوكيل وعداوة المستأجر القديم ، ولا ادرى كيف استميل الأول أو أترضى الثانى.

لقد حرت فى أمرى فاللهم هدايتك ، فقد عز الناصر وقلت الحيلة.

١ سبتمبر . هأنا فى مدينة دسونس ، وخلفت أبى واهلى فى كفر الشيخ ، ولاأقدر ان استقر ساعة ـ فاذا جلست مللت ، وإذا سرت ضجرت ، وإذا التمست السلوة عجزت ، وإذا فكرت حممت ، وكل شىء حولى يؤلمنى ، حتى اكاد اختنق بالهواء الذى أستنشقه .

مالى كلما عزمت على أمر ، ولاح لى بريق أمل ، انقلب الأمل الى خيبة وألم ؟ اللهم إن كان هذا قضاءك فىّ فكما تشاء .

لا أجد من الفكر مناصا ، وكلما فكرت تمثل لى خطأى واضحا ، لانى أنا الذى تسرعت بنقل أهلى مع أبى ، وأنا الذى أشعلت النار فى قلب أبى ، وقد كان فى كسبى القليل مقنع لقانع . أنى لم أقدر أن يمرض أبى فى مثل هذا الوقت ولا مثل تلك الظروف ، وكان الواجب على أن أقدر ذلك وأعمل له عدته ، ولكن متى كان عقل الانسان قادرا على الكمال لا يفوته خطأ ؟

إن مرض أبى لو تقدم شهرا لكان إنذارا كافيا ، ولكننا نقنع عند ذلك ونقلع عن ذلك السعى ، ولو تأخر شهرا آخر لكان فى الأمكان أن يحضر إلى هنا بعد أن يكون قد انتهى كل شىء ، واستتب الأمر واستقرت الحال. فلمَ يحدث المرض فى هذا الوقت بعينه ، لا تقدم ولا تأخر ؟ أن هذا أمر الله الذى قدر على كل مرء رزقه ، وما شأن المنكود فى السعى الى السعة ؟ إن الشقى إذا حاول النجاة من شقائه وقع فى شقاء أبلغ مما هو فيه ، وهكذا قسمت الحظوظ بين الناس ولا عتاب ولا ملامة .

٣ سبتمبر . جاءنى خطاب من اختى تطمئنى فيه على

صحة أبى ، ولكنى ألمح بين سطوره مالم تستطع أختى أن تخفيه ـ فأن نبرات لفظها تدل على الخوف ، وأكاد أسمعها من الطرس ، وأكاد أحس بخفقان قلبها وهى تكتب .

وقد عاودتنى اليوم مخاوفى أكثر قوة ، وعاد الىّ هاتفى وهو الآن أعلى صوتا وأخوف إنذارا ، إذ يقول لى هذه المرة « أن أبى فى خطر » . اللهم أهذا قضاؤك فىّ ؟ أكاد أختنق أو أهم الى هذه النافذة فأسلكها ألى الهلاك ، فالنسيان النسيان إذا كان ممكنا .

سأنتهز فرصة الغد يوم الجمعة ، فأذهب لأرى أبى فان قلبي يتمزق خوفا عليه .

٤ سبتمبر . جئت إلى والدى لأراه فوجدته كما قال الهاتف ، ولاحول ولاقوة إلا بالله ـ وإن قلبي ليتحرق كلما رأيته راقدا فى مضجعه ، ويخيل لى ان اقعد الى جانبه فلا ابرح مكانى ، بل اظل اقبل يده حتى تبرد تلك الحرقة . انه ينظر الىّ نظرة تذيب الصخر ، فكيف تفعل بقلب ابن محب ؟ انى عندما لثمت يده اليوم شعرت كأن بردا نزل على صدرى تخفف من لوعته ، وكأن الخطر الذى كنت قلقا من

اجله قد زال ، فانى لا اشعر به الآن منذ رايته ؛ ولوانه فى حالة من الضعف عظيمة . ولا ادرى لذلك من علة سوى ان قربى منه قد ابعد عنى تصور حاله فى الخيال ، والخيال هو مصدر رعبي والمى فى كل طور من اطوار حياتى ـ فقد وجدت نفسى تستطيع ان تقابل الحقيقة بغير ضعف مهما كانت مؤلمة، ولكنها اذا تصورت تلك الحقيقة فى الخيال ، لم تستطع الثبات بل اضطربت وجزعت . ولعل هذا سر من اسرار النفس البشرية لم اعرفه من قبل .

مسكين يا ابى ما كان انحل جسمك واخفت صوتك ! أأيام قليلة تفعل كل هذا ؟ وماذا فعل الطبيب واين اثر دوائه ؟ ايها الطبيب ، أرجع لى ابى الذى كان يسير الى جانبى ، أرجع ابى الذى استشفى بطبك ، أذهبت حيلتك ؟ وهل عجزت ؟ وهل تلك إرادة الله ؟ لقد تشدد عندما رآنى ، ولكنه لم يلبث أن عاد اليه الضعف أبلغ مما كان . . . ويلاه ! ماذا أصنع ، وقد حتم علىّ أن أسافر إلى عملى اليوم وأتركه على حاله هذه ، ولا أستطيع غير ذلك ، لأنى لا أقدر أن انقطع عن العمل الآن ، وقد سبق انقطاعى عنه مدة طويلة منذ

أيام . ولا غنى لنا عن ذلك العمل ، إذ فيه رزقنا ، ولا أقدر على تضييعه مع مانحن فيه ، وإذن فلا بد من تحمل ما جعل الله لى فى حياتى من الآلام التى تتكشف لى واحدا فواحدا.

ما كان أخف جسم ابى عندما حملته لأصعد به على السرير ولأنزل به عنه ، وما كان أضعف صوته عندما كان يقول لى « حفظك الله يابنى العزيز » وما كان أثقل طرفه إذ كان ينظر نحوى وكأنى به يريد أن يشبع عينه من النظر الىّ . قبلت يده والقلب خافق ، وجالت فى عينى دمعة أخفيتها خوف أن يتألم لألمى ، ووددت لو كنت أقضى العمر على مثل تلك القبل الحاره ، أو لو بقيت إلى جانبه لأحمله كلما أراد حركة فانه لايقوى عليها وحده ، ولكن أواه ! إنها الحاجة ترغمنى على الذهاب الى دسونس . اللهم رفقا بى . واأبى ! واأبى !

مساء اليوم . سألت أبى بشأن الأجارة ، وياليتني لم أفعل لأنه قال لى عند ذلك : « أنت ترى بعينك يابنى أنى لااقدر على العمل الآن ، وهكذا شاء الله . إنك يابنىّ مسكين ، وأنا متألم من أجلك ، ولكن يجب أن تكون رجلا ، وثق بالله رغم كل مايلوح لك من سوء حالك وقلة حظك ،

فان له فى كل كارثة نعمة ، وفى كل مصيبة لطفا خفيا ، ثق به فأنه عمادك ومساعدك . وأنى أظنك لا تقدر على العمل مع هؤلاء القوم ، وأنا اعرف الناس بهم ، فاتترك لهم هذه الصفقة ، فهذا ما أراد الله . وإذا كان فى الاجل مهلة . (وسكت عند ذلك دقيقه كانما كان يبكى بكاء داخليا) اقول إذا كان فى الأجل مهلة « كان غيرها خيرا منها »

لقد بكيت ولم أستطع أن أكتم ألمى عند هذه الكلمات ، وان نفسى حائرة لا أدرى ماذا أفعل ، وأجد ذلك الشعور بالتشتت قد غلب على كل مشاعرى . لقد ودعت أبى ، وقال لى « لعلى أراك ثانيا يابنى » . وكيف يكون مصابى لو لم أرك ثانيا ياأبى ؟ لا اقدر ذلك .

٦ سبتمبر . لا أزال اتذكر كيف كانت قبلتى الاخيرة ليد ابى عندما ودعته قبل سفرى ـ لقد كانت طويلة خنقتنى فيها عبرة لم اتمالك نفسى منها ، فقطعت القبلة قبل الاكتفاء ولازلت منذ الأمس مع ابى فى الخيال ، صاحيا كنت او نائما ، واليوم قد اتانى من اختى خطاب تجتهد فيه ان تخفى عنى الحال ، ولكنها لم تستطع ، لأنى

قرأت بين سطوره مالم يخف على الروح رغم خفائه عن العين . ماضيق الفضاء بنفسى وماأشد شوقى اليك ياابى . لكأن ناراً تتأجج بين ضلوعى ويثور لهيبها ما بين عينىّ .

٨ سبتمبر . هل يكون ماتخبر به الاحلام؟ فقد حامت بالأمس كأنى ارى أبى وهو يحدثنى صحيحا قويا فتىّ الوجه مملوء الجسم ـ يكلمنى ويضحك كما كان يفعل ايام كنت صبيا فى المرة الاولى فى دسونس . وكأنه كان يحمل فى يده الساعة التى أعطانيها يوم نجحت فى امتحان الدراسة الابتدائية ، ويقول لى « هذه جائزتك يامحمد لنجاحك ، وقد اخترت لك الساعة لكى تنظم وقتك ، فقد اصبح الآن ثمينا ، لأنك صرت من تلاميذ المدارس الثانوية » . إن هذه الألفاظ احيت فى ذاكرتى ايام الحياة الأولى ـ ايام الصبا والسرور والسعة ـ ولكن واأسفاه ! فأنها تحمل أيضاً ذكرى النكبة التى حلت بأبى عقب ذلك بقليل ـ لست ادرى هل تصح الأحلام فأرى ابى ثانيا وقد تعافى وشفى من مرضه ؟ وماأحلى ذلك الأمل لو تحقق !

جعلنى هذا الحلم اراجع نفسى فى مخاوفها ، وأقول لعلها

مخاوف كاذبة قد دفعني الخيال اليها لفرط حذري وشدة حبي، ولكني أرى نفسي غير مستريحة برغم كل تعلل وكل مراجعة.

٩ سبتمبر. ماذا آكل اليوم؟ أني لا أجد في المدينة أكلا ملائما، ولا أقدر على عمل شيء لنفسي، وأني ارى أني حقير ضعيف إذا وازنت بين نفسي وبين أحد الأعراب أو أحد الرواد، الذين يجوبون القفار لا تمدهم المدنية بشيء من عددها ولا نعيمها، ويعيشون بأنفسهم سنين طويلة مما يصيدون ويصنعون بأيديهم. وأني أظن الرجولة لا تتم الانسان إلا أذا عرف كيف يعيش وحده من الطبيعة ومع الطبيعة، بغير مساعدة الناس له، فمن قدر على الحياة مستقلا، كان ولا شك تام القوى وافر الرجولة ولكن ويا للأسف لم ننشأ إلا على الاتكال، ولم نتعلم من عدة الحياة الا بعض الفاظ نحفظها، أو بعض حقائق نفهمها، وأما الحياة نفسها — حياة الرجل، فلا نستعد لها بشيء. وأغرب ما اري أن الناس لا يريدون أن يفهموا ذلك، وإن أقل تفكير يظهر لهم صدق هذه الحقيقة، ولكنهم كما أقول لا يريدون أن يفكروا ولا أن يفهموا..

فلا بد ان ابدأ بتعليم نفسى، ورياضتها على هذه الحياة ولأبدأ منذ اليوم بقدر مااستطيع ، وسيكون لى اكبر باعث على العناية ، لأنى إذا اهملت عاد الأهمال علىّ ، ولأبدأ اليوم بطبيخ شىء من البطاطس واللحم ، ولا بد من اكله ولو كان محروقاً كريه الطعم ، حتى احذق الطبيخ .

ولكن ماهذا الذى يقرع الباب ؟ انه خادم (ع) بك ـ ماله داخلا كذلك واجما ساكنا ؟ وماذا اتى به الآن فقد كنت الساعة عند (ع) بك ، ولاأظن شيئاً جديداً خطيرا قد طرأ عليه حتى يدعونى اليه بعد هذه الفترة القصيرة . أن الرجل ـ ويله ـ يتقدم نحوى ساكنا ، وهو يمد يده الىّ ماهذا ؟ — إنه . . .

١٤ سبتمبر . لقد سقط القلم من يدى فى آخر ما كتبت فى اليوم السالف ، عندما رأيت ذلك التلغراف المشؤوم فى يد الخادم .

وقد إنتهى الآن كل شىء ، ولاحول ولاقوة إلا بالله ولم احضر وفاة أبى ، ولم أره قبل موته ، فواحر قلباه ! إن الحزن فى نفسى أعمق من الدمع ، وهو يكاد ينفجر بقلبى ..

لقد كانت قبلاتى التى قبلتها يده آخر ماقدر لى منه فى هذه الحياة ، فهل كنت أعلم ذلك ؟ وإن قلبى كان يتحرق وقتذاك ، وأنا أكاد الصق صفحة وجهى بظهر يده ، ولا أدعها ، فهل كنت أشعر إذ ذاك بما كان مخبوءاً فى الغيب وبأن تلك المرة آخر مرة أراه فيها على ظهر الثرى ؟ وهل كان هذا سر اضطرابى وقلقى عند وداعه تلك المرة ؟

قد انتهت ياأبى معاشرة طويلة بيننا ، وتخلفت عنى وتركتنى وحدى فى هذه الحيـاة ، أقاسى وحشتها منك ، وخلوها من قلب عاطف مؤثر محب . وإنى لا أذكر لحظة من حياتى خالية منك — فأنك تملأ حياة طفولتى وصباى وأنت محور حياة شبابى ، وأنت صديق جهادى وعملى ، دخلنا كلانا فى ميدان تركتك فيه صريعاً ، وأقطعه الآن وحدى وسط بيداء قاحلة هذا أنت ياأبى معى كأننا راجعان من معاينة الأرض ، وهذا أنت كأنى اناديك وتناديني ، وهذا أنت كأنك تبسم لى وتمزح بوداعتك التى اعتدتهـا منك ، وهذا أنت كأننا نحن جلوس حول الموقد أيام كنت طفلا ، نشوى الكستنة ونضحك ونمرح . هذا أنت معى

فى كل عصر ، أفتذهب عنى كذلك وأبقى أنا وحدى فى الحياة ؟ . أهكذا يسقط الناس بعضهم عن بعض كورق الشجر فى الخريف ؟ وهكذا يتخلف الرجل عمن يحب رغماً ؟

خلفونى وقد علمت يقيناً ما لمن ذاق ميتة من إياب
فلى الويل بعدهم وعليهم صرت فرداً وملنى أصحابى

عليك من الله رحمة بقدر ما هطل من قطر على الأرض منذ خلقت ، وأفسح لك من رضائه جنات عرضها السموات والأرض ، وإلى الله يا أبى نفسك الطاهرة السخية ، وإنا لله وإنا اليه راجعون .

١٥ سبتمبر . لا فائدة من طول بقاء أهلى فى كفر الشيخ بعد إذ كان ما كان ، ولا بد من نقلهم معى إلى دسونس ، ولكن لا أستطيع ذلك الا آخر الشهر . أحاول أن أعزى نفسى ، وأن أنسى فداحة مصابى ، ولكن لا أجد سبيلا الى ذلك . فكلما سرت مع العقل شوطاً ، غلبتنى العاطفة ، فوجدت نفسى فى طوفان من حزن عميق وليس من عزاء عندى أكبر من أن أفكر فى لقاء أبى بعد هذه الحياة ، فى عالم السعادة الأبدية والخلود .

١٦ سبتمبر . لست ادرى ما جزعى هذا ؟ وما فائدة حزن لا يعيد مامضى ؟ ولمن البقاء فى هذا العالم ؟ ليت العقل يغلب القلب فيذهب بكثير من هموم هذه الدنيا وأشجانها ، لأن الانسان إذا استطاع أن يقنع نفسه بعقيدة زوال هذا العالم ، وأن كل شىء فيه الى فناء ، احتقر كل ما يتعلق به ، ولم يجد فيه شيئا يحزن عليه . ولكن هيهات أن يتذكر الأنسان هذا ساعة ثورته ، فأنه إذا صدم انساه شعور ألمه كل تفكير وكل حقيقة أخرى غير ألمه .

١٧ سبتمبر . مازلت كل يوم ازداد اعتقادا فى حقارة تلك الحياة ، وكلما فكرت فى الأنسان وما يعمل فى حياته ، زدت استخفافا به ونقصا منه — إنه يأمل فى سعادة يسعى اليها ، ويحرص على مادة نالها ، أو يدأب فى تحصيلها ، ويفرح لنصر يناله ، ويحزن لخسارة تحل به ، وما آخر كل هذا ؟ أليست كل حياته بعض دورات من دورات الفلك ، ثم يصبح فى بطن الثرى ترابا كما كان قبل الحياة ؟ إن هذه حقيقة بسيطة ، يعرفها كل انسان ، ولكن لا يتحققها أحد ، ولا يشعر بها شعورا قويا إلا الأقل . وعندى أن أعلى

درجة يبلغها الانسان، أن يصبح مع أبى العلاء فى ملته إذ يقول:

غير مجد فى ملتى واعتقادى   نوح باك ولا ترنم شاد

ولكن هل يستطيع الانسان أن يكون كذلك؟

وقد رأيت بالأمس طفلا أعمى، يدب على عصاً، وهو لم يتجاوز السلّم الأولى للحياة. ورأيت آخر، وقد ذهب باصابعه داء موروث عن أهله. فسألت نفسى ما معنى الحياة لمثل هؤلاء؟ أهى كحياة سائر الناس، أم قد حرموا ما حبا الله به آخرين؟ فوجدت نفسى بين أحد قولين إما أن هؤلاء قد ظلموا إذ حرموا فى قسمة الحظوظ مما تتمتع به غيرهم، وذلك ظلم منكر، وإما ان النظر والصحة والمال ليست بشىء، وأن الحياة ومتعلقاتها ومظاهرها كلها أعراض هينة، لا عبرة بها، سواء نعيمها وبؤسها، وإنى أميل الى القول الآخر، تعالى الله عن الظلم والجور، فالحياة، كما بدا لى من قبل، واجب، علينا أداؤه، والحياة التعسة تمضى كما تمضى الرغدة، ولا عبرة بما بين الميلاد والموت من الحالات، فما هى الا مشية المسافر نحو مستقره

١٨ سبتمبر. نقول إن الدنيا لنا، وإننا أهلها، وإننا

مالكو هذه الأرض . ويل لغرور الانسان وعماه ؟ —
وقفت بالأمس عند الغروب ، وكانت الشمس تصبغ السحاب باللون الأحمر البديع ، الذى يأخذ بالنفوس ، وإلى جانب ذلك لون السماء الأزرق الصافى ، الذى تهدأ العين عند التطلع اليه . فأخذت افكر فى جمال هذا المنظر ، حتى هممت بالركوع خشوعا وإجلالا للخالق المبدع لتلك الكائنات وعند ذلك ذكرت الماضى من الأجيال ، وأخذت أستعيد فى خيالى كيف كان أهلها يقفون كما أنا واقف ، ويرون ما أرى ، ويقولون هذه أرضنا ، وتلك سماؤنا ، وهاتيك شمسنا ، كما أقول أنا اليوم . وما زلت أنتقل فى الخيال ، حتى تمثل لى المصرى القديم ، وهو واقف فى حقله يزرع ويقلع ويغنّى ، حتى إذا ما غربت الشمس ، كما هى غاربة أمامى ، ركع إجلالا وخشوعا كما هممت أن أفعل ، وتصورته وهو يقول ، « هذه أرضى وتلك سمائى وها هى الشمس الهى ذاهب إلى عالم الآخرة حيث سأذهب بعد موتى ، فألقاه قد استعد بنعيمه للقائى »
وظللت كذلك ، أتصور حاله وهيئته وقوله ، ثم انتبهت الى نفسى فوجدتنى واقفا فى مكان كان هو به من زمن ، وإذا

به قد بلى وذهب ، وتبدلت الأزمان ، وسار في موطئ قدمه أمم عدد الحصى ، حتى وقفت أنا به ، ولا أزال أفكر كما كان يفكر وأحسب أن الأرض أرضى والسماء سمائى . حقا إن الأنسان لا يفكر عميقا ولا يتعظ ، وهذا طبع فيه لا يقدر أن يتخلص منه ، فهو باق عليه يحيا كما عاش من سبقه ، ويتبع نفسه كما تسول له ، حتى يلحق السابقين الى الفناء . ولا بأس بذلك ، فان الانسان خُلق ليحيا ويطيع نفسه ولا حيلة له فى الطبع .

وقد رجعت الى ديوانى المحبوب فقلبت صفحاته فوجدت فيها قطعة كأنه يترجم بها عن نفسى هذه المرة أيضا ، وها هى :

تلك الصّبا هبت وهذا الربيع جآء له الزهر بثوب ينيع

ونفحة تشفى الفؤاد الوجيع

والشرق يستقبل بدر الدجى

والغرب قد ضُرّج ما ضُرجا

قد لف هذا الكون حسن بديع

وسجعة تملأ جوف الفضاء

يا حسنها كيف يذوب الغناء ،

كأنها لحن ملاك السماء

وقفت بالنيل مثار الشجون
تجيش بى الآمال شتى الفنون
والحسن داء ثائر أى داء

هل تنقضى ايام هذا الشباب
وهل تعلات المنى للذهاب
ياليت شعرى ما الغد المستراب

للنفس آمال طوال المدى
وجمرة للمجد لن تخمدا
لكن فى الماضى عظات عجاب

ذكرت رمسيس على جحفل
كأنه ستر الدجى المسبل
متئدا كالهيدب المقبل

يسير فى الناس عزيز الجناب
فى شرف الملك وعز الشباب
ترمقه الأعين لا تتلى

فقال إذ أعجبه الرونق
لمن تحلى الغرب والمشرق
ومن له يخفق مايخفق

أكان غيرى فى الورى سيد
وهل سيذوى عودى الأملد
أحسب هذا المُلك لايخلق

لكن تولى الملك واستحالا
وبدل الدهر بحال حالا
لم يبق إلا قصصا أمثالا

وإنى اليوم كتلك العصور
أختال فى برد الصبا والغرور
وأبتنى فوق السها آمالا

لا تبعن النفس فيما ترى
أضرب فى الآمال مستهتراً
وفى غد أمضى كهذا الورى

١٩ سبتمبر . لم لايترك الأنسان هذه الحقائق المادية

ويعيش وحده فى عالم الخيال قانعا بأفقه الداخلى ؟ فان رغبات النفس اذا لم نستطع الحصول عليها انقلبت الى الام حادة ، ولكن عيش الخيال لاتوجد فيه تلك الخيبة التى كثيرا مانلقى فى عالم المادة . فكل شىء ممكن فى الخيال ، ولا يستحيل فيه شىء فاذا شئت كنت فيه ملكا مطاعا مثل رمسيس او الأسكندر أو نابليون، ولوشئت كنت فيه رب ثراء لاأعجز عن شىء ، فما علىّ الا ان اصور نفسى فى مكان هذا أو ذاك ، واتخذ من الخيال جنودا وانصاراً ، وأبنى فيه مجدا وعزاً ، وسطوة وصولة ، فلا تبعد على نفسى رغبة ولاأعجز عن بلوغ غاية ، بل أضرب فيه مطلقاً حراً .

يقولون ولكن الخيال شىء غير محسوس، ولا وجود له إلا فى الوهم ولايلبث الوهم أن يزول . نعم ولكن ألا ينعم فيه الانسان حينا ؟ وهل هناك فرق بين مايتركه نعيم الخيال من الأثر فى النفس وبين مايتركه نعيم المادة ؟ واذا كان الخيال يزول ، فهل حياة المادة دائمة ؟

لقد سبحت فى خيالى مطمئن البال ، وحولى من كل

صنوف السعة والوفر ما تقر عيني به ، فأنا مع امى واختى فى منزل صغير حوله حديقته الفسيحة ، تحوى من الاشجار والرياحين ما يلذ ويطيب ، والقمر يرسل عليها نوره الفضى وانا جالس اقرأ على ضوء مصباح كهربائى قوى وعدا من صديق بزيارة ، وقد جاء الصاحب بعد قليل ، وجلس معى يحدثني احاديث مختلفة ، حتى جاء وقت العشاء ، فجهزلنا من الماكول أطيبه ، فاكلنا مع جماعة من الزائرين ، وجلسنا بعد ذلك فى سمر حلو وفكاهة ، نتناول مختلف الاحاديث ونأخذ منها من كل زهرة قطرة . وياليت كانت حياتى كلها فى ذلك الخيال ، أو ياليت الحقيقة تخفى على أو يضرب بينى وبينها حجاب صفيق فلا يخرق

ان تلك جولة لم تدم ، فصحوت منها لأجد نفسى فى قاعتى قبيل الغروب ، والظلام مقبل بوحشته ، والهواء راكد خانق وانا وحدى ، وامى واختى وحدهما فى بلدنا ، والفقر معى بئس الرفيق ، والأمل لايكاد يدب الى نفسى من ناحية ما . فما اوسع الشقة بين نكد الحقيقة وسعادة الخيال

٢٠ سبتمبر . جاءنى من اختى خطاب تطلب فيه بعض

اشياء ضرورية للسفر ، وسأجتهد لعلى استطيع ان ارسل لها ماتطلب ، فهذا السفر لابد منه . ولكنى أجد يدى قصيرة لأن مرض والدى رحمه الله ، وما احتجنا اليه عند وفاته ، استنفد ما كان لدينا من المال الذى ارسله عمى من ثمن الارض ، والوظيفة التى آخذها لا يبقى منها بعدالقوت شيء للادخار ، فلا مناص من سؤال فهيم هذه المرة أيضاً. ويلاه ماأشد كل ذلك على نفسى ! إذ أرانى دائما فى مقام الطالب حتى لكأنه قد حتم علىّ أن تبقى يدى السفلى . وفى ذلك منتهى الشقاء لمن كانت نفسه مثل نفسى فأين التفضل منى، وأنا على ذلك العجز ؟ وأين الإباء والكرامة والشمم اذا كنت مضطراً إلى السؤال ولوكان ذلك لأعز أصدقائى ! فان الكرامة إذا جرحت ولو أمام واحد ، كانت كرامة مجروحة ناقصة. فما أقبح الفقر وأشد اساره: انى لا أطيق التفكير فيه رغم كل تعلل وكل فلسفة، وأكاد أختنق كلما رأيت عجزى ظاهراً لعينى ، لأنى أنزع الى الكرم والى الحرية والى العزة والافضال ، ولا أستطيع شيئاً من ذلك بل أجدنى أهوى مع الحاجة برغمى الى السؤال والأسر والذلة .

٢٢ سبتمبر . أرسلت بالأمس ما طلبته اختى، وأتوقع الآن مجىء أهلى الىّ بعد هذا الافتراق المشئوم، وأظن أن ذلك السفر يتطلب شيئاً من المال، وعلىّ زيادة على هذا ديون منوعة، ولا أقدر على سدادها ولا سيما فى هذه الأيام أيام الغلاء، الذى يزداد يوماً بعد يوم. فأجدنى مضطراً لأن أرسل لعمى أو لأحد القريبين منه، لأطلب بعض مالنا عنده من المال ولا بأس بذلك فانى سأطلب حقاً لى، وهو يعرف الحال السيئة التى أنا فيها، ولا أظن إلا أنه سيبادر الى الاجابة، لأن قلبه الاخوى لابد قد حزن لفقد أخيه، وأنبه على إيلامه وأذاه، ولعله يفكر فى محو الاساءة إلى أخيه بالاحسان الى أبنائه، أأقول الاحسان؟ وهل أصبح أداء الحق إحساناً؟

٢٩ سبتمبر . هاقد استقررت بعد طول الاضطراب، وأرانى أبسم بعد العبوس الذى لازمنى حتى كأنه طبع فى وجهى. أبسم إذ أرى امى واختى إلى جانبى مرة أخرى، وهما مابقى لى فى الحياة مما أضن به. مرحباً إلى قلبى المكلوم

نعيش معاً نتقاسم ماجعل الله لنا من رزق ، ونتعاون على مايرسل الدهر من مصاب .

انى لا يخلو لى ليل من حلم ، ولا يخلو حلم من رؤية أبى ، فاذا صحوت لم تزل ذكراه ماثلة فى عقلى ، وقت سرورى وساعة ألمى ، إذا اشتد الحر وإذا هب النسيم البابل ، إذا أظلم الليل وإذا سطع البدر ، وإذا غربت الشمس أو لاح النجم أو تنفس الصباح . فقد كانت معاشرة طويلة ذقنا بها معاً صنوف المشاعر ، و باونا فيها تصاريف الدهر جنباً إلى جنب .

لقد ارسلت اليوم الخطاب إلى عمى ولعله يفيد .

٣٠ سبتمبر . بدأ الخريف منذ أيام ، وقد أخذ الجو يبرد فى هذه المدينة أسرع مما يبدأ ذلك فى الجنوب ، وأرى ثياب امى واختى لاتدفع عنهما البرد ، ولكنهما لا تطلبان غيرها خوفا من إحراج صدرى

ياليت دمع العين يجدى ، فأبكى حتى أسيل قلبى وأخرج من تلك الحياة ، ولكنى لو فعلت لم يعد ذلك بفائدة ، بل لكان فى ذلك كل الضرر لو أصبح أهلى بغيرى ، ولا مسند لهم إلا عملى الضعيف .

إن الانسان قد يستطيع أن يتحمل مايصيبه فى نفسه ولكنه لايقدر أن يهون على نفسه وقع ماينزل بمن يحب. كيف بى الآن لو مرضت أو عجزت عن العمل؟ أيموت أهلى جوعا؟ أم أتركهم لحماية المجتمع ورأفته؟ حقاً إنه مجتمع كريم رؤوف. إن قسوته ماثلة أمام عينى فى كل وقت، حتى لقد ظننت سوءاً بالطبع الانسانى من أجل ذلك، لأنى أرى الناس يلذون رؤية الشقاء فى غيرهم، ولا يفعلون الخير ألا مراآة وخداعا، ولهذا أجد أن خير حظ يناله أهلى إذا أنا هلكت أن يهلكوا معى.

١ اكتوبر. ما أعجب تقلب الانسان وتغيره بين حين وآخر! فهو فى ساعة ضنين بالحياة وفى اخرى زاهد فيها، حتى ليخيل لى أن أفكاره تتقلب مع تقلب الجو ومع تغير الفصول والأحوال، وأرى فى نفسى ذلك واضحاً، وكأنها مرآة ينطبع فيها حال الطبيعة.

كانت ليلة الأمس غاية فى الجمال، فسرى عنى فيها كثير من هموم الماضى، وهذا ما أجده دائماً إذا تركت القمر والسماء الصافية والنسيم البارد، فكأن ذلك الهدوء

وهذا الجمال يظهران للنفس حقيقة معنى الحياة، ويكشفان عنها مظاهر الانسانية ، تلك المظاهر التى خلقها الانسان ليعبدها ، فيتضح لها الوجود على حقيقته ، وتظهر الحياة مجردة عن ضلالها وزخرفها، وهنالك يجد أمثالى ممن حرموا مادة الدنيا وحطامها ، أنهم من الأحياء ، وأن فى الطبيعة لذات لهم لا يذوقها غيرهم من أهل الجاه العريض. إن الانسان لا يتمالك أن يعتقد زوال هذه الحياة وبطلانها وحقارة مافيها، إذا هو تأمل مافى الكون الواسع من آيات الله القدير .

لقد خرجت بالأمس الى الفضاء ونفسى تتقلى على جمر ، وجلت بين الحقول أقلب طرفى فى جمالها ، وأسرح نظرى فى غدرانها وأغصانها، حتى هدأت ثائرتى وتبدل جوى نفسى الى نور يهديها ، فعدت بعد هذه الجولة وفى نفسى عِبَر مما رأيت ، وراحة من أثر ذلك المنظر الجميل الذى أشبعت روحى من محاسنه، ورويتها من تأمل بدائعه ومن العجيب أنى عدت إلى منزلى فوجدت فى ديوانى قطعة كأنها تترجم عن نفسى — حتى لقد أصبحت أعتقد أن ذلك الشاعر المجهول كان يحمل قلبًا مثل قلبى وينظر بعين كأنها عينى ، وها هى

القطعة وعنوانها (سر الحسن) وهى قريبة فى روحها ومعناها من القطعة الأولى التى ذكرتها من قبل :

لازلت تجرى يانسيم الشمال   معطّر الأنفاس
وتنثنى ياغصن بين الظلال   بعودك المياس
والأرض فى زينتها تزدهى   بحُلّة السحر
تمتع العين بما تشتهى   من باسم الزهر
والنيل ينساب بمنهاجه   يلاعب الحباب
يراقص النور بأمواجه   كاللؤلؤ المذاب
ودون واديه رمال الفلا   فسيحة الفضاء
لا تستقر العين فيها على   مثوى سوى هواء
بدائع شتى وآياتها   جليلة السر
حسبى من اللهو لذا ذاتها   وعبرة الفكر

* *

لصفحة الشرق إذا أسفرت   عن نفس الصبح
ونسمة الريح أذا ما جرت   ساحرة النفح
وزهرة فى الشوك مهجورة   باسمة الثغر
وقطرات الطّل منثورة   تسخر بالدر

أطيب مايدرك من لذة   شعاعها قدسى
رسيسها يبقى على جدّة   يثور بالنفس
والحسن لم يُخلق لبُطل ولا   لعبث الهازل
فنوره الأبلج وحى العلا   للمثل الكامل

٢ اكتوبر . تزيد فى نفسى فكرة زوال العالم وضوحا كل يوم ، وكلما خرجت إلى ذلك الفضاء الجليل ، ورأيت نجومه البعيدة وبدره السنىّ ، خيل الىّ أنى وسط عوالم حية خالدة تنظر إلىّ وتضحك إذ ترانى ذلك الأنسان المغرور الجاهل الذى لا يفهم ولا يتعظ . فقدمضى من الناس جيل بعد جيل ، جاءوا إلى العالم وعاشوا فيه حيناً ، ثم ذهبوا إلى حيث لا يرجع الذاهب ، بعد حياة مملوءة بالآمال والعواطف المختلفة ، من حب وكره ، وطمع ورغبات . وماذا جنوا من كل ذلك ؟ وماذا تخلّف من آمالهم ورغباتهم؟ يعلم كل الناس أن كل هذه الآمال زائلة باطلة ، وهم مع ذلك يأملون ويرغبون ، ولا يتعظون بما ترى أعينهم من أمثلة الماضى . وهأنا واحد منهم لا أزال آمل وأرغب ، مع أيقانى بزوال هذه الحياة وبطلان مافيها

من نعيم وزخرف . انى كثيرا ما افكر فى هذا فلا يزال بى الفكر حتى أقع فى حلم يقظة ، وتمر امامى اشباح الماضى ، وأرى كأنى فى منفيس او فى طيبة أو فى غيرها من العواصم المصرية القديمة ، أشاهد آثار المجد والعظمة ، واتطلع الى القصور الشاهقة والحدائق الغنّاء ، وأنظر الى الجلال والجمال فى غُدوّ ورواح ، ثم ما ألبث أن أصحو فأنظر حولى فلا أجد إلا البدر يسطع على الحقول التى حولى وأنا وحيد فى وسطها. وقد حدث مثل هذا ليلة الأمس فجاشت بنفسى الخواطر حتى ازدحم بها صدرى، ثم عدت إلى منزلى فوجدت قطعة اخرى فى ديوانى المحبوب تمثل زوال العالم فى صورة كانت أقرب شىء الى الصورة التى فى خاطرى ، وهي :

النجم يرعانى وأرعاه قد عكر الجلاّس إلاّهُ
أشبه من زفراتى وما لغيره يأمن أوّاه
والبدر فى الليل رفيق الخطا يضىء أقصاه وأدناه
تلوح فيه الارض موشيّة من أقصر النبات واسماه
لمثل ما ابصر من منظر تُغفر للدهر خطاياه

* *

وساحر الاجفان حلو اللمى ضعيف كرّ الطرف تياه
حديثه مثل دبيب المُنى يبسم والدر ثناياه
حسبي من اللذة انفاسه ومن رضِيّ العيش لقياه
قد تمت الغبطة فى ليلة قلّ لها فى الدهر أشباه
ما العيش إلا ما يلذ الفتى ونعمة الحسن قُصاراه

* *

لكن برغمى سنحت عبرة وكل حال فيه ذكراه
كأنى أبصر دهراً مضى مما رأى البدر بمسراه
هاتيك منفيس بها ما بها من شاهق القصر وأعلاه
يلوح عن بعد بها موكب أخراه لا تبدو لأولاه
حتى إذا أبصرت أعلامه وخرت الناس للقياه
عرفت رب الملك فى عرشه حسبك منه خير سيماه

* *

وذاك فى طيبة قصر سما يضيء فيه العز والجاه
وربه يختال بين الربى نوّارها يزهو بريّاه
وحوله من كل حورية يأخذ عنها الطير مغناه

إذ ذاك كان البدر فى افقه   كما أرى الساعة لألاه

* *

واليوم لا قصر ولا روضة   إلا طلالا من بقاياه
والبدر مازال على عهده   كأنما لم يعف مغناه

٣ اكتوبر . إن نفسى قلقة . فاذا جلست اليها انا قشها عن علة قلقها لم اجد إلا إبهاما وغموضا . فهل ضاق صدرى لوحشة من حب ؟ لا ، فان الحب يفيض منى وعلىّ ، وهذه أمى وأختى ما أحب أحد أحداً كما أحببتهما وأحبتانى . وهل هذا الضيق من كدر العيش وصعوبته ؟ ولكن ألست الذى يتعلل بصغر قدر هذه المادة ، وزوال النعيم ، وبطلان زخرف تلك الحياة ؟ أم ذلك القلق نتيجة لهذه السحب المتراكمة فى السماء ، تغطى نجومه وبدره ، ولهذا الهواء الشديد الذي يهب كأنه يئن فى هبوبه ؟ لست أدرى أى هذه العلل قد أحدثت ذلك الأثر بنفسى ، ولكن على أى حال لا أرى فى الحياة خطبا يحمل بى أن أقلق له ذلك القلق ، فقد شهدت أن اكبر المصائب إذا نزلت بالانسان أمكنه أن يتحملها ، ولم يضق حتى بكارثة دهمته ، وما اكبر خطب أتوقع ؟

فانى لا أملك شيئاً يمكن أن أفقده ، فليس من نازلة تنزل بى إلا الموت ومرحباً به ، فلقد كنت فيما مضى أخشى على أهلى إذا أنا مت أن ينالهم سوء ، ولكن أجدنى هذه الأيام أقل خوفاً مما كنت ، لأنى كنت مبالغاً فى مصابهم فىّ إذا أنا قضيت ، وسيخلفنى فيهم الله وهو لا يترك ضعيفاً ولا يتخلى عن لاجىء مستصرخ .

٤ اكتوبر . رب أهكذا قضيت فى خلقك ؟ . إن فى الناس من هم أشد منى بؤساً ، وهذا مما يزيد ألمى ، لأنى أتألم لنفسى ولغيرى .

دهمت اليوم عربة لعظيم من عظماء المدينة رجلا من الفقراء فأماتته ، وهذا الرجل أعرفه ، فهو أعمى فقد بصره وهو شاب على أثر مرض الجدرى ، عندما عجز أهله عن مداواته ، وكان أبوه صانع أوان صفيحية ، فبقى الولد كلا على والده حتى مات فأصبح يتردد بين أحياء البلد يسأل الناس ، فيعطيه الفقراء مما عندهم إذ كانوا يعرفونه منذ صغره . وقد عدّت الحادثة قضاء وقدراً ، فلم يكن لذوى الرجل من دية إلا مالا يسيراً تفضل به القاتل عليهم . ولست

أدرى لم أحزن لهذا الرجل وكان حريًا بى أن أسر له، لأنه تخلص من حياة منكودة شقية. إلا أنى مع ذلك لا أتمالك أن أفكر فى تقسيم الحظوظ أذا انا ذكرته، فبينما يعيش احدهم فى تراث آبائه، لايكد فى شيء، بل يقضى كل وقته فى تلذذ وترف، نرى الآخر يعيش بالكد القاطع والفقر المدقع، ثم تصيبه مصيبة فى عينه وهى نتيجة فقره، فلا يقدر على دفعها، فيحملها كارها، ثم يموت هذه الميتة البشعة تحت عجلات صاحب الثراء. نعم إن هذا الغنى وأمثاله قد حطموا مثل ذلك الرجل حيا، فسلبوه كل نعمة، ولم يدعوه يحيا كل حياته التعسة، بل حطموه حتى خرج منها متألما.

فهل للحياة من قيمة؟ وهل لتلك المظاهر الدنيوية من قدر؟ وإذا كان لها قدر فكيف توزع النعم والمصائب بين الناس؟ إن كل ماأرى يزيد فى نفسى عقيدتى الأولى رسوخا، وذلك أننا ولدنا حتما، ونحيا حتما، ونموت حتما. وماحياتنا إلا واجبا أُمرنا به وعلينا أداؤه، ولاقيمة لمافيها من مظاهر وحالات، فما هذه الحالات إلا أعراضا تعترض الأنسان اثناء عبوره لها، فهى مثل الغبار الذى يلحق

بذيل المسافر فى طريق يسلكها .

١٥ اكتوبر . خرجت بالامس بعد تفكير مؤلم فى ذلك الرجل المسكين الذى قتله الغنى ، فلم أجد من أذهب اليه غير صديق خفير السكة الحديدية . فاما صرت معه اخذت احادثه على عادتى ؛ ولكنى نسيت نفسى فكلمته فيما كنت أفكر فيه بشأن الحياة وبطلانها وزوالها . وانها واجب لا علم لنا بالمقصود منه وعلينا أن نطيع امر الله فيه . وكان الرجل يسمع لى وهو متعجب مما أقول ، وكأنى به قد ساء ظنه بى ، وحسب قولى دليل عقيدة مزعزعة ، فأخذ يراجعنى فى القول على غير عادته ، لأنه فى العادة يسمع ما أقول قابلا غير متشكك . فأخذ يقول لى « كأنى بك تقول ان الحياة لاقصد لها » فقلت له « وهل تقدر ان تقول لى القصد منها ؟ » فأجابنى « انا لا أدرى فأنا رجل جاهل ، ولكن الله خلقنا لقصد يعلمه ، ولو كانت الحياة باطلة فلمَ نحياها ولم جعل الله فى قلوبنا حبها والرغبة فيها ؟ »

فقلت له « لقد قرَّبت الحق مع تواضعك ايها الصديق . إنك تقول إنك جاهل ، والحقيقة أنك أعلم قلبا ممن يدعون

العلم غرورا . أنا لا أعارض فى أن لله قصدا من خلقنا، ولكن هذا القصد لا علم لنا به ، فلهذا أقول إننا خُلقنا لنحيا ولا نعلم لمَ ، فحياتنا حتم : أو هى واجب نقضية ، ثم نمضى عنها كذلك حتما . وأما حبنا للحياة ورغبتنا فيها فميل غريزى طبع فينا ولولاه لشعرنا بأن الحياة حمل لا قصد منه ، ولكان كل انسان يتخلص منها فيفنى الخلق ، فعواطفنا المختلفة ماهى إلا طباعا جعلها الخالق فينا تحثنا وتثيرنا. فنقطع مرحلة الحياة على دفعها وإثارتها بغير ملل ، وتلهينا عن التفكير فى الحياة وقصدها وغايتها ، فتنقضي الأيام بين اندفاع الانسان مع حبه وكرهه ، وطمعه ورغباته ، حتى تتم الرحلة ولم يشعر بوحشة المفازة ولا بطلان السير ــ تصور أيها الصديق أنك قد نزع منك كل شعور بحب وكل شعور بكره ، أكنت تقدر على البقاء ؟ انك تحب كل ما فيه سرور لك ، وتكره كل ما فيه ألم ، ولو لم تكن عندك هذه الميول أكنت تجد للحياة معنى ؟ »

ولكنى انتبهت عند ذلك الى الرجل ووجهه ، فوجدت عليه علامات الشقاء بادية ، ووجدت فى عينيه معنى الحيرة

والارتباك ، ففطنت إلى خطأى ، وعلمت أنى أريد أن أجذب الرجل إلى هوة شقائى وألمى ؛ فأشفقت عليه من وسواس هذا الفكر ، وأخذت أخرج به الى الحديث المعتاد ، حتى زالت عنه تلك النظرة الحائرة ، وأحمد الله إذ رجع الى سابق ظنه بى بعد ذلك ، فقد وجدته عاد إلى محادثتى بالحرارة التى عهدتها عنده ، وقد عزمت على ألا أعود الى مثل هذا الحديث معه ، وياليت أنى أستطيع الحياة مثله بغير تفكير .

٦ اكتوبر — اليوم يئست من مساعدة عمى ونسيبه لأنى كنت ارسلت الى صهره (د) بك أن يتوسط لى عنده لسداد ماعليه لى ، فجاءنى الرد منه اليوم ينفض يده من أمر لا يعنيه . ولقد كنت أنتظر منه غير ذلك ، فكان الخيال يصور لى أن ذلك الرجل ستدفعه الاريحية والنخوة الى أن يرسل لى دينى ، لانه غنى صاحب ثروة عظيمة ، مفضلا ان ينتظر هو على أن أنتظر أنا مع حاجتى وقلة ذات يدى ولكن احمد الله على أنه رفض التدخل فى الامر ، فان الله خلصنى بذلك من ذلة ، وهل قبول مساعدة الناس الا

ذلة ؟ اللهم احفظ على إبائى ولو ظل ذلك مقرونا بفقر قاتل.

وانى كلما خلوت الى نفسى ورأيت خلوها من أسر المادة التى تأسر الكثيرين ، اخذنى شىء من الاعجاب بها ، وحبذا الفقر اذا كان صاحبه يشعر حقيقة باحتقار حطام هذه الحياة.

ولست ادرى ماهؤلاء الذين نسميهم الأغنياء ، لأنى كلما فكرت فيهم لم أجد الا فقرا فى نفوسهم ، وإقلالا فى خلقهم . فاكثرهم جامد ضنين ، ومنهم الذى يسرف ولكن على نفسه وترفها ، ولا تسخو نفسه باطعام مسكين ، وعندى أن الشح اكبر فقر للنفس . وانى أعاف ان أكون غنيا من امثال هؤلاء ، فكلما أمعنت فى تعرفهم لم اجد الا ظلما وسرقة وتطفلا ، فقصورهم الشامخة الى جانبها الاكواخ الحقيرة ، واذيالهم المجررة بجوارها عرى كامل ، وما قامت القصور الا على انقاض الاكواخ ، وما تلك الذيول المجررة الا أسلاب هذه الاجساد العارية ، فأين للغنى بذلك الغنى كله لو كان عادلا ؟ فان الناس لايختلف بعضهم عن بعض فى القدرة بمثل هذا القدر . وإنى لا اتمالك الإعجاب باللص العربى الذى انتقم من هذا المجتمع الظالم بأن ابى السؤال وفضل النهب

قائلا فى وصف كرهه للسؤال

وأن اسأل المرء اللئيم بعيره ونعران ربى فى البلاد كثير

الا عدلك اللهم ، فان ظلم الناس كاد يجعل فى النفس حسدا . والذى يموت من الجوع معذور اذا هو حسد من يمرضون بالتخمة .

٧ اكتوبر — اشعر هذه الايام بألم فى جنبى وبقبضة فى صدرى ، وقد تزايد هذا الألم منذ الأمس عندما اتانى رفض (د) بك أن يتدخل بينى وبين عمى ، ولكنى قد اعتدت إن أنا تألمت أن أخرج الى الفضاء ، فهناك أجد فى السكون والسعة مايعيد لى قوتى . وسألتمس ذلك الدواء اليوم رغم برد الهواء منذ ليلة الأمس . لست أدرى لم يسرع الشتاء كذلك ولم يمضى الصيف مسرعا ؟ فكأنى بالطبيعة ذاتها تعاكس الفقراء .

٩ اكتوبر — ان المرض يزداد بى ، فالألم القليل الذى كنت اشعر به فى جنبى أصبح ألما مبرحا يمنعنى النوم ، والضيق الذى كنت أحس به فى صدرى أصبح الآن يمنع النفس فيكاد يخنقنى ، وإنى على ما أنا عليه من احتقار الحياة

وكرهها جزعت من سرعة سير المرض بي ، ولعل أكبر ما يجزعني هو التفكير في أمي وأختي. ولكن ما أحسن أن يثق الانسان بخلاق عظيم يخلفه على من يحب أذا قضى نحبه، فان ذلك يخفف عن الانسان أكبر الهموم واقساها. وأحمد الله إذ أرى عقيدتي تزداد رسوخا يوما بعد يوم، فان العقل المغلق هو الذى لا يرى يد الله في هذا الملك العظيم ولا يستطيع من يفتح عينيه إلا أن يبصر بهما قدرة القدير وعظمته وجلاله.

١٠ اكتوبر . إن المرض جادّ بي ، ولا يزال كل يوم يغلب واضعف عن مقاومته ، ولكن لن المس الأرض بجنبي ما استطعت غير ساعات النوم، فان المرض قد يجدي فيه المقاومة.

لم يبق معي من وظيفة الشهر إلا ثمن القمح اللازم لمؤونة البيت ، فلا أقدر على الذهاب الى طبيب أو شراء دواء ، لأن القوت أولى من كل ذلك. ولا أقدر أن أعرض نفسي على طبيب وأرجوه إعفائي من الأجر ، فان نفسي تأبى هذا كل الاباء ، ولا سيما وقد علمت أن بعض الأطباء

لايحملون نفوس الأطباء .

١١ اكتوبر ـ شكرا لك أيها الطبيب الكريم ، وشكرا لك أيها الصاحب المحسن . إن صاحبا ما كنت أظنه يهتم لأمرى ، سأل عنى ، فقيل له إنى مريض ، فجاء يعودنى مع صديق له (الدكتور محمود) وقد تطوع الطبيب بفحصى ، ووصف لى دواء ، وأوصانى بأن أقيم فى مدينة غير (دسونس) ، لأنها رطبة الهواء ـ نعم أيها الطبيب ، سأعمل بإشارتك ، فأذهب إلى حلوان ، وهناك أستأجر بيتا ذا حديقة واسعة ، وأشترى له ثمين الرياش وفخم الأثاث ، وأن يمضى على هناك شهر حتى أبل من مرضى ـ إنى أضحك ضحكة يأس باردة عندما أفكر فى هذا ، لأن أمثالى من الناس إذا مرضوا كان حتما عليهم أن يذهبوا ضحيـة المرض ، ومن يكون للموت إذا لم أكن له أنا وأمثالى ؟ ـ دعنى أيها الطبيب حيث أنا ، وإذا شئت أن تداوينى فاعلم أن عاتى قسوة المجتمع وظلمه ، فداو هذه الأمراض إذا استطعت ، ولا أخالك تستطيع ، وماذا يفعل الآسى مادام هنـاك مارد يقطع الأوصال ويحز القلوب .

إنى أُقتل قتلا بطيئاً ، والذى يقتلنى هو ذلك النظام الذى يحمى السارق والغاصب ،ويحابى الجشع،ويظل القاتل تحت جناحه .

١٢ اكتوبر . لن أفكر بعد الآن فى أمر مرضى ، فاذا هدأت ثائرته حمدت الله على ذلك ، وإلا استسلمت لما شاء ، ولست أقدر على القعود فى منزلى ، فانى إن لم أقم بعملى مت أنا ومن معى جوعا — نعم متنا جوعا بلا ريب فليس فى الناس من يرضى أن يحيى آخر يموت من الجوع إذا كان ذلك يكلفه كسرة مما بيده ـ لا بل أستغفر الله إن هناك من تسخو نفسه ، وهذا السخى هو الفقير الذى لا يقدر على شىء ، ولكنى أستغفر الله ثانياً ، فهل نسيت فهيم ؟فلأدع إذن ذلك التفكير،ولأرجع بنفسى إلى عادتها من الخروج إلى الليل والفضاء الواسع ، ولأغرق آلام جسمى فى لذات روحى ، ولعلى أستطيع أن أعيد اليها هدوءها وأملها .

مساء اليوم — خرجت اليوم قبيل الغروب الى ظاهر المدينة عند صاحبى خفير السكة الحديدية ، فوجدت كل

شيء على عهده إلا شيئاً واحداً وهو أنا، فانى تعبت فى السير تعباً شديداً على غير عادتى ، وقد رأيت الاصيل ساحراً فكانت السماء مزينة بالسحب المتقطعة البيضاء ، ثم كساها الأصيل من الألوان ما يعجز عن وصفه اللسان ، وكانت زهور الخريف الصفراء ترفع رأسها بين الحشائش الخضراء، والعصفور يصفر صفيرة المتقطع القصير كأنه طفل مرح : فما زلت جالساً وقد استولى على سحر هذا المنظر، حتى أقبل الليل وظهرت النجوم البعيدة تامع فى السماء ، والريح تهب بين الغصون فتحدث صوت حفيف محزن . فذهب ذلك المنظر بالخيال إلى بعيد ، فنظرت إلى النجوم القديمة التى شهدت الأرض ومن جاء فيها منذ قرون، ولا تزال هى على عهدها السابق تامع وتنظر جامدة لا تتحرك إلى الحوادث التى تهز هذه الأرض وتثيرها . فأخذت أسائل النجوم أين ذهب من ملكوا الأرض . وأين راحت عظماؤها، وكيف اندثرت آثار حوادثها. وكأنى عند ذلك كنت أسمع النجوم تجيب ضاحكة «قد ذهب القوم وما كانوا كباراً» نعم لقد كان عظماء هذه الأرض أطفالا نمت فيهم بعض القوى ، فثاروا حيناً

حتى نفذت قوتهم نخبت الثورة ومضوا — وما الفرق بين طفل يصرخ حتى يملك لعبته ؛ وبين ملك عظيم لا يزال حتى يملك الأرض ؟ فان الميل واحد وإن اختلفت مظاهره .

ومن أعجب الأمور أنى عندما رجعت إلى ديوانى المحبوب وجدت فيه قطعة تصور خيالى، فقرأتها وأنا أهتز لها ، ثم تنفست نفساً عميقاً ، وكأنى فهمت منها سر الحياة فهدأت ، ويخيل لى أنى لو مت الآن مت مستريحاً مطمئناً وهاهى القطعة .

راقصى ياسحب أنوار السماء　　واسحبي الذيول
واخضبى كفيّك ياجند ذُكاء　　بدم الأصيل
ونسيم الريح من صوب الشمال　　يلثم الأفنان
ناشراً من عطرها السحر الحلال　　عن ربى الريحان
هذه الأنفاس أنفاس الربيع　　حلوة عِذاب
نعم هذا الحسن فى الروض اليَنيع　　مونق الشباب
وقِطار الطل فى سلك الغصون　　لؤلؤ منثور
وأديم الأرض ألوان فنون　　ضاحك الزهور
أيها الصادح فى أيكته　　ردد النواح

فبكاء الطير فى دمعته بلسم الجراح

**

غير أن الشرق القى ظاماً وطوى الجمال
واختفى الحسن وشيكا مثلما يختفى الخيال
وأتى الليل على صولته يملأ الفضاء
وبدت تسطع فى صفحته درر السماء

**

إيه يازُهر تعاليتِ على ذلك الوجود
مشرفات من محلات العلا أبد الخلود
حدثينا أيها الزهر بما مر من دهور
فلكم شاهدت فيها حكما تعظ الغرور
هذه الأرض لمن كانت وما هذه الآثار
خطها أبصر تعلو حطها تملأ الأقطار
أين رمسيس على دولته ومعاقله
فلقد شاهدت من طلعته وجحافله
أين دارا صاحب الملك المجيد ملك الورى
أين اسكندر ذو الفتح البعيد أسد الشرى

أين هرون وما جنَّاته　　في ربى بغداد
وابن چنكيز الذى ذات له　　عزة الأمجاد

النجوم

أنا هذا أبد الدهر أرى　　سيرة الاجيال
زمراً أبصرت تتلو زمرا　　تسرع الترحال
ماالذى تسألنى عنه وما　　هذه الأسماء
جاء اقوام وفاتوا أمما　　ضمها الفناء
ليس فيمن مرّ الاذاهب　　طائع الأمر
وسواء مبطىء أو دائب　　آخر السير
أى شىء ضل فيه السائلون　　مدة الآباد؟
نفس منبعث ثم سكون　　هادىء الرقاد.

١٥ اكتوبر. كان المرض قدسكن عنى فى اليومين الماضيين، ولكنه عاد الىّ اليوم ويكاد صدرى يتمزق من ألمه، وأرى المرض جادا على حين أنا أهزأ به. رويدك أيها المرض ورفقا بى، ولست أطلب رفقك حبا فى الحياة ولكن لأن لى أما وأختا.

اخذت أفكر فى طريق أستطيع بواسطته أن أنجى

حياتى من ذلك المرض الذى يخيل إلىّ أنـه خطير برغم استخفافى به ، فكلما طرقت سبيلا وجدتها مغلقة ، ولا يلوح لى أمل إلا من جهة واحدة ، وهى جهة صديقى فهيم ، الذى ما وقعت فى حيرة إلا كان هو منقذى منها . فلأرسل اليه هذه المرة أيضاً ، لعله يجد لى عملا بالقاهرة ولست أخشى منه أن ينقص قدرى عنده فان نفسه ليست كنفوس الناس . وإنى كلما فكرت فيه مرت على صدرى نسمة طيبة ، وارتسمت على وجهى ابتسامة ارتياح فى أى حال كنت ، ولو فى أشد ساعات الهم وأحلـكها . ومما يزيد رغبتى فى البعد عن « دسـونس » ما رأيته على وجه (ع) بك من التغير ، فكأنه تأذى من كثرة امراضى وقلة عملى هذه الأيام ، فأصبح متجهما عابسا نحوى . وانه معذور ، ولا أخشى إلا أمراً واحداً منه ، وهو أن تبدر منه إهانة لى .

إنى أريد ان اسرع بترك المدينة قبل أن يصل الأمر إلى هذا الحد ، فان الحياة لا تساوى أن يهان الأنسان فيها . وإنه يخيل لى أن الموت أهون علىّ من تحمـل الأذى فى

كرامتى ، فان نفسى متكبرة برغم كل ماأنافيه . ويلاه ! إن هذا ممايزيد فى شقائها ، فان أحسن عاطفة ينبغى أن تكون فى قلب الفقير هى عاطفة التواضع واللين، أو بقول آخر الضعة وتحمل كل شىء . فأذا لم يكن الفقير هكذا ، قضى أيامه على الألم المبرح زيادة على الفقر القتال .

١٦ اكتوبر . ذكراك ياأبى لاتزال تعاودنى ، ورحمة الله عليك فى مثواك البعيد ولو كنت أعتقد فى الأحلام لقلت إنى لاحق بك بعد قليل، لأنى اراك كل ليلة فى منامى وأقبل يدك وتبسم لى ، ووجهك ممتلىء وعيناك تضيئان نوراً . وياليتنى أقدر أن احج إلى جدثك ، فأبالله ببعض تلك الدموع التى أذرفها كل يوم . رحمك الله ياأبى ، فكأن روحك معى تشجعنى وتصبرنى ، لأنى إذا ذكرتك هانت عندى كل آلام الحياة وشقائها .

١٩ اكتوبر . امامى الآن داعيان ، احدهما من كفر الشيخ ، وذلك ان احداً صدقاء أبى أرسل إلى يعرض الاشتراك معى فى اجارة وقد اندفع إلى ذلك بحب مساعدتى إكراماً لذكرى أبى رحمه الله . وإن سعيه لمشكور، ولكنى لا أظن

انى اقدر على تلبية مايعرض . واماالداعى الثانى فمن صديقى فهيم إذ ارسل إلىّ خطابا يقول لى فيه :

ياعزيزى محمد

« ألا تزال على عادتك قرويا ؟ إنى لن اسميك إلا قرويا لما اعرفه فيك من حب الفضاء والبعد عن المدن . وقد تركتك كل هذه المدة لم اعرض عليك شيئاً يخالف رغبتك فى الوجود بدسونس، لما كنت اعرفه فيك من حب العزلة والبعد عن ضجة المدن الكبرى . ولكنى رأيتك حننت الى القاهرة ، لأنها مدينة شبابك ، وقد سرنى ذلك . واخبرك ان عندى بالقاهرة عملا ترضاه ، فاحضر الى فى أقصر وقت ، لأنى مشتاق اليك. وعسى أن تكون شبعت من مناظر الطبيعة القوية الجميلة ـ وعلى ذلك ارجوك أن تترك لى الحرية فى تسييرك حسب ماأرى ، ولاتضطرنى بآهاتك الكثيرة ، وملاحظاتك العِدّة ، إلى السير حسب هواك . افهمت ؟ وإنى انذرك من الآن ، انك إذا كنت تريد قصر سيرك ورياضتك على شبرا والجيزة ، والصحراء الواسعة والفضاء اللانهائى ،وحقول البرسيم وزهر العاقول،

فانى اكون مضطرا عند ذلك إلى أن اضع على عينى غطاء ، وفى اذنى سدًّا ، وأجعلك تقودنى فى كل رحلاتك كما يقاد الأعمى الأصم ، وهذا يكون عقاباً لن تستطيع احتماله ، فتنزل على حكمى برغمك ، وتعيش مع الناس ابناء آدم .

إلى اللقاء ياعزيزى ودمت لأخيك . »

شكراً لك ياعزيزى « فهيم » إنى احبك وأحب كل ماتقول . وسأذهب اليك ولعلى استطيع أن أبقى بجانبك لأنى أشعر بالحاجة إلى ركن آوى اليه .

١٢٣ اكتوبر ـ سمح لى (ع) بك بإجازة طويلة لمرضى . وأغرب شىء انه سمح لى بها بغير تردد ولا غضب برغم ما كان يلوح لى منه من العبوس تلك الأيام الماضية ، ولا أدرى علة لذلك ، إلا أن يكون ابو فهيم أرسل له فى هذا بناء على إيعاز فهيم ، فانى أميل دائما إلى أن أعزو كل حسنة فى العالم إلى ذلك الصديق ، وأغلب ظنى أن حدسى صادق .

وانى عظيم الألم لأنى مضطر إلى أخذ بعض وظيفتى لأصرفه فى سفرى المقبل ، ولكن لعل فيه ربحا يعوض تلك الخسارة . واشعر بشىء كثير من الاضطراب كلما

فكرت فى أنى سأترك أمى وأختى هنا ، ولو ان ذلك مؤقت إلى حين ، لأنى لا أحب يوما يطلع على غير حديثهما والنظر اليهما . وفى نفسى شعور آخر ولا أستطيع أن أعلله ـ وماذا أقول ؟ ان القلق والاضطراب يصوران فى خيالى صورا مخيفة فأشعر بأن سفرى للقاهرة هذه المرة سفر منحوس لن أعود منه .

٢٥ اكتوبر ـ لقد عرض علىّ فهيم العمل الذى وجده لى بالقاهرة ، وهو محرر فى صحيفة ، وقال إنه سيجد لى فرصا أخرى بعد قليل ، والحق أنى لا أميل إلى ذلك العمل فى قرارة نفسى ، فعمل الصحفى مبنى على الاتصال بذلك المجتمع وأنا التمس البعد عنه والهروب منه وأجد فى نفسى كرها عميقا لمجتمع سلبنى والدى ـ نعم سلبنى والدى ، لأنه هو الذى قتله ، وسيسلبنى نفسى ـ ويلاه من ذكرى أمى وأختى !

إن هذا المجتمع الذى يُقتل فيه البرىء فقرا وظلما ، ويحتمى تحت ظل قانونه اللص والظالم والجشع والقاتل ، لمجتمع يجب الهروب منه بكل وسيلة . فاذا أنا كنت محرراً فى صحيفة ، فلن أكتب الا فى هدمه والكشف عن دناياه .

ومساوئه ، وسأكون بذلك خارجا عليه متعرضاً لكرهه وأنا أود المرور من ذلك العالم سالماً ساكناً . فلأترك ذلك ولأمتع النفس بجمال القاهرة ـ لا بل لأشبع قلبي من ذلك العالم ، لأني أشعر أني تاركه بعد قليل ، وإنه يلوح لي الآن جميلا وكأن نفسي ضنينة به — عجبا ! وكيف أحب الحياة في عالم لم أر فيه إلا كل مايدعو المقت والكره ؟ إني أكره العالم والحياة بعقلي ولكن حب الحياة طبع في غريزة الانسان فهو أس البقاء . ما أجمل سماء القاهرة في هذا الوقت ، فهي صافية لايعكرها شيء كأننا في ربيع . ويجتهد صديقي (فهيم) أن يدخل لقلبي السرور بكل وسيلة فهو يدور بي على نواحي القاهرة ، ويذكرني بذكريات الماضي ، ولكني أشرد منه دائما إلى التفكير في مساوىء المدنية ـ في شقاء وترف كائنين تحت سماء واحدة ، وغرور قوم وحطام ضحاياهم جنباً إلى جنب ، وفي حال الناس وأن جماعة منهم يقعدون عن السعي ويترددون بين أماكن القصف واللهو ، من نادٍ إلى مسرح إلى ماخورة إلى غير ذلك مما يقتلون فيه وقتهم الطويل ، وأن آخرين لايجدون القوت رغم كد يذهب بنفوسهم . ولهذا أجدني

لا تتم لى لذة بجمال القاهرة ، ما دامت صورة ذلك الجور ماثلة في ذهنى . وهناك أمر آخر يزهدنى فى حياة تلك المدينة المتسعة وهو ضجيجها الدائم وكأنى بضوضائها قد زادت علوا عما كانت عليه فى الماضى ، ولعل سبب ذلك بعدى عنها هذه المدة . فلست أجد من نفسى ميلا إلى الرجوع إلى الحياة فى هذه الجلبة رغم ما بالقاهرة من جمال ، وأفضل ان أبقى فى (دسونس) بعيدا فى وسط الحقول والغدران .

٢٦ اكتوبر . يصر (فهيم) على تسميتى (القروى) حتى فى أثناء السير العادى ، وليتنى كنت كذلك فأقضى الحياة فى بضعة أفدنة أفلحها وأعيش قانعا . ولكن أنى لى ذلك وقد أحاط قوم بالغنيمة ولا حظّ بينهم لمثلى .

ذهبت اليوم الى القصر العينى ليرانى أطباؤه بالمجان ، وقد وصفوا لى دواء ، وأشاروا على بالهواء النقى والأكل المفيد، نعم وسمعا وطاعة فانى سأعد كل يوم مائدة جميلة للغداء، وأخرى للعشاء ، وأعيش فى منزل جميل فى مصر الجديدة او حلوان ـ ولكن سيكون كل هذا فى الخيال فالحقيقة مُرة . فهل هذا يشفينى أيها الأطباء ؟ إنى أضحك برغمى . أيها الأطباء

إذا شئتم شفاء مثلى فاصرخوا فى المجتمع وداووه أولا ، فان داءنا منه ولكنكم لاتفكرون .

٢٩ اكتوبر. قد تكون الحياة بالقاهرة طيبة اذا كنت اقضى كل وقتى كما اعتدت من قبل ، بين الحقول والرياض ، وتحت السماء والنجوم ، وقد تأكدت اليوم من أنى لن استطيع الحياة فيها بين اهلها وفى ميدانهم — فصحتى يضر بها الضجيج اكثر مما تضر بها رطوبة (دسونس) ، وارى هنا حياة لااقدر على التشكل بشكلها واذا صح راى اصحاب مذهب النشوء والارتقاء فأنا غير صالح للبقاء فى نضالها ، لأن ذلك يحتاج إلى قوة وشره وانا على جانب عظيم من ضعف الطيبة والزهد ولا مدح فى ذلك ، لأنى اعتقد ان الطيب لا يصلح للبقاء فى هذه البيئة الحاضرة .

حقا ان كل ظاهر الناس هنا مضحك فى سخافته وتفاهته ولكنهم رغم ذلك لا يدركون انهم سخفاء ، بل يظنون انهم بلغوا اعلى درجات الرقى وذرى المدنية . فقد ذهبت منهم طباع الفطرة ، وأصبحوا متكلفين فى كل شىء حتى فى اظهار الشوق والحب ، وحتى فى الأكل والجلوس ، فجعلوا

لكل شيء قواعد وحدود لا تطيقها النفس . وقد أكون أحيانا فى حالة من الألم شديدة ، والهم مخيم على نفسى ، فأذا ما أبصرت جماعة من مثل من اصف ، ورأيت كيف يتخاطبون ، وكيف تبدو ميولهم وتظهر عواطفهم ، اخذنى الميل الى الضحك حتى ضحكت برغمى ، اذ يخيل لى انى ارى دُمى تحرك اعضاءها حركات غير طبيعيه ، لا خلقا من الأحياء .

ولا اظلم نفسى ، فانى اكبرها كلما رايت استرقاق المادة والحياة للناس ، واستيلاءها على قلوبهم ، مع حرية نفسى من ذلك الأسر ، واحتقارها لما يتهافت الناس عليه .

٣٠ اكتوبر . اليوم حضرت مع فهيم مجلسا من مجالس الأدباء ، وكان فى الجلوس جماعة ممن يقولون الشعر ، ولكن نفسى لم ترتح الى أحد منهم . وكان كل منهم يحاول بقدر استطاعته ان يظهر براعته فى القول ، ويكشف لنا عن محاسن نظمه ، وكيف يولد المعنى الطريف ، وينظم اللفظ الأنيق ، وكان فى الجلوس فتى أصفر الوجه ، اذا نظرت الى عينه فكأنك تنظر الى شعلتين ، بهو ساكت وبه شيء

من العبوس ، وكان كلما قال أحد قولا تبسم ومدح ما يقول،
فوجدت من نفسي ميلا يرغمني على السؤال عنه ، فأخبرني
فهيم انه فتى ساكن حزين، خرج من المدرسة بعد اتمام الدراسة
وقد تهدمت بنيته ، حتى لا يستطيع العمل الكثير ، ولذلك
بقى يعيش على كسبه القليل الذى يصيبه راضيا ، ويعيش
اكثر اوقاته فى الفضاء مع الطير والشجر . واضاف الى ذلك
انه شاعر ، ولكنه لا يقول كلمة من شعره امام الناس الا
اصدقاء قلائل . وقد طلبت من فهيم ان يسمعني بعض قوله
وما كان اعظم سروري بما سمعت منه – فانه بعد انصراف
الجمع ذهب مع فهيم ومعى الى الجيزة ، وقضينا هناك مساء
من اجمل اوقات حياتى . وقد اسمعنا شيئا من قوله، لو استطعت
لجئت به جميعه ، واكتفى هنا بأن اثبت شيئا على سبيل
الاستذكار ، فلا أحب ان انسى ذلك الفتي الساكن الاصفر
الوديع القانع ، لأني احببته برغمي لشيء فيه لا اعرف
ماهو ، ولا بد ان ابقى عندى ما يستبقى صورته . وهاهى
قطعة من قطعه :

«كل يرى الحوء على زعمه»

هي الشمول غير ممزوجة
تدب بالساقى وبالشاربه
فى روضة شعثاء وحشية
لم تنتقص منها يد الشاذبه
الزهر منثور بأنحائها
والماء من جنب الى جانبه
دقائق اللذات مخلوسة
فلا سماع اليوم للعاتبه

* *

لكن أشجانا يخالجننى
وهل تلذ الكاس للاغبه
ياصاح لا تلأ إلى أن أرى
مطيبا لهمى الناصبه
يازهر إن أسوت لى مهجتى
لازلت محمولا على حاجبى

أرى خصالا فيك يعجبنى
على صفاح وجهك الشاحب

جواب الزهر

تشكو إلى ذى قرحة إننى
أحق بالشكوى لما حاق بى
ما كنت للناس سميرا وما
خلقت للعابث واللاعب
خلفنى دهرى وما حيلتى
ثم رمى حبلى على غاربى
ياليته — وهل تفيد المنى
حسبى إذن بدمعى الساكب

* *

قد جئت أستشفى إلى مدنف
حسبته ذا مرح داعب
أخفى هموما فى غلالاته
وغرنى بظاهر كاذب

لكن هذا جدول سلسل
قد أشتفى بمائه الشائب
ياماء إن برئت من علتى
على يديك لم تزل صاحبى

جواب الماء

جريت بالوادى فأحييته
من أشجر فيه الى عاشب
أحنو على العود كأم له
رشفه من دِرّة حالب
حتى إذا ماصار ذا جمرة
تشب للمقرور والساغب
لم يرع حقى وكوانى بها
واحربا من أمل خائب

* *

حسبت هذا الماء يشفى الجوى
وكيف يُستشفى الى ناحب

يا صاح فاطو الراح مختومة
لا خير لى فى ريقها الخالب
لكل حى فى الورى علة
لم يخل حى فيه من نادب
كل يرى الحق على زعمه
فالحق منشود بلا طالب

أول نوفمبر . عزمت على ألا أقيم فى القاهرة، وقد قلت رأيى لصديقى فهيم فرأيته تكدر عند ذلك ، ولكنه نظر إلىّ وقال « إنك لاتزال قرويا . ألا تريد أن تصلح يا أيها الساذج ؟ » فقلت له « اعلم يافهيم أن بلدكم لاتسكن فاتركنى أرحل عنه ، وأظنك لا تلومنى على ذلك الشعور فى قرارة نفسك » . فنظر إلى وسكت لحظة ثم قال « ولكن ياأخى ألم يقل لك الأطباء إن جو القاهرة لا يلائمك غيره؟ » ولم يرد أن يطيل فى ذلك ولعله ظن أن ذلك القول يؤذينى . ما أطيب قلبك يافهيم ! إن القاهرة أو أى بلد آخر فى الوجود لا يفيد مثلى شيئاً ، فلأرجع إلى مقرى الهادىء .

٦ نوفمبر . تذكرت اليوم آلامى الماضية فى محل عملى

بمدينة دسونس ولكنى مع ذلك أرى أنى سأكون معرضاً لمثل تلك الآلام فى أى عمل آخر ، وعلى ذلك فقد عزمت أخيراً على الرجوع إلى عملى الأول .

١٠ نوفمبر . إن مثلى لا تفيده الاقامة فى أى بلد ، وكيف يستطيع أن يأتى بالدواء وأن يقوم بشروط التداوى من مأكل جيد،وسكنى موافقة ، مع ماهو فيه من العيشة النكدة . وإنى أشعر ان مقامى فى هذا العالم قليل ، ورحم الله ابى لقد كان يقول لى ذلك فما كنت أصدق — كان يقول إنه يشعر بدنو الأجل وهأنا الآن أشعر بمثل ما كان يشعر به .

١٢ نوفمبر . افكر فيما إذا مت ماذا يكون حال من بعدى ، فتسود عند ذلك الدنيا فى عينى لأنى لا ارى احداً يقوم عليهم سواى — إلا الله .

ما أجمل الوثوق بالله ،والاتكال على عطفه!إن المؤمن الحقيقى لا يجد فى الحياة هما يملأ نفسه ،ولا يجد فى الموت خشية ، فألق اللهم فى قلبى إيمانا قويا .

١٥ نوفمبر . كيف يقول قوم من الناس ان لا إله ؟

اعميت عيونهم ؟ ومن يكون إذن خالق تلك العوالم المتسعة وهذا الفضاء الفسيح وذلك الملكوت العظيم ؟ من لهذا الضوء وهذا النسيم، ومن بارىء تلك النفس وموجد تلك النباتات وهذه الحيوانات ؟ ماأكثر غرور الانسان ووقاحته إذ يقول ان لا إله . إن من يقول ذلك لابد قد افسده الغرور واعماه الجهل .

رب اخلفنى فيمن احب،فقد دنا الأجل على ما أرى. رب إنى واثق بك فاخلفنى فيمن أحب .

١٨ نوفمبر . طالت إجازتى عما كنت أقدر،فلا بد أن أعود بعد قليل إلى عملى،ولا أظن زمنه طويلا لأنى أرى الآمال تخبو فى نفسى ، فلا افكر الآن كثيراً كما كنت أفعل ، ولكني برغمى أفكر فيما يكون حالك يا أختى لو ذهبت عنك ، وماذا يكون حالك يا أمى .

إن املا كنت اسعى إليه منذ سعيت لم يتحقق ، وما كنت أسعى إلا لسعادة اهلى ،فأبت الأقدار إلا ما كان.

ماذا يكون مستقبلك ياأختى — يا أيتها الزهرة الجميلة؟ إن جمالك يتفتح الآن أمام عينى ، وأكبر من جمال خلقك،

جمال خُلقك ، لم جعلك الله ابنة هذه الاسرة التعسة التي ليس لها سواى ؟ وكيف تكون أيامك المستقبلة إذا أنا غبت ؟ وما يكون اشوق ترىى إليك واقلق روحى إلى معرفة اخبارك ! إني لا يحزنني ذكر الموت الا لأنه سيبعدني عنك وعن امى يا أختاه — أواه ! ان جسمى لا يحتمل ألمى.

٢٠ نوفمبر . أرى أن أكتب وصية على أن ليس لى ما أوصى به ، ولكنى أريد أن اوصى على من خلفت ، فاذا كان للعالم قلب شعر . وليس أمامى من اكتب له الوصية إلا صديقى (فهيم) ، وسأكتبها وأعطيها له مع توصيته ألا يفتح المكتوب حتى أقضى — نعم حتى أقضى وليس أمد ذلك ببعيد ، لأنى أشعر بدنو الأجل .

٢١ نوفمبر . يمنعنى صديقى من السفر ، ولم هذا ؟ إنى اشعر باضمحلال فى قوتى وضعف فى كل اعضائى ، حتى فى جفونى وأسنانى ، واخشى ان اموت هنا بعيداً عن اهلى فينالهم من ذلك اذى فى الانتقال الىّ فى حال الذعر . ما اشد الفراق على نفسى ، ولا سيما فراق امى واختى ! وإنى اشعر الآن بشوق محرق إليهما .

اشعر الساعة كأن اعضائى تتفكك ، وبألم فى مفاصلى شديد ، وقد ضعفت ضعفاً اخشى انه إذا زاد لم استطع السفر ، ففيم المقام ؟ لااطيق الاطالة فى الكتابة لان عينى تتألمان ، وظهرى لايستقيم .

٢٦ نوفمبر . هذا ما كنت اخشى . أأموت بعيداً عن اهلى كما مات ابى ولم اره ؟ لا بد من السفر مع ماانا فيه من الضعف الشديد ، وقد وعدنى صديقى ان يأتى معى ليعتني بى ، فشكرا له . شكراً لك ياصديقى فهيم .

في مدينة دسونس

بأمر اخى آخذ القلم لأكتب مايملى علىّ —

٣٠ نوفمبر . لا أستطيع أن أكتب ، ولكنى أريد أن أكمل قصتى ، حتى أمضى ، لتكون آخر صحيفة من حياتى كاملة . ولذلك أنا أملى على أختى لتكتب لى : جاء معى صديقى فهيم ، وهو الآن فى المدينه ليشترى لى دواء وإنه يضطرنى إلى شربه ظنا منه أن فى الأجل بقية ، ولكنى أدرى منه بما هناك . إنه لايرضى ان يأخذ منى ثمن الدواء وانا قابل منه تلك المنة ، كما قبلت غيرها منه بغير كره ،

لأنى اعلم ان الدافع له على ذلك حب لا رياء فيه . وقد اعطيته الكتاب الآنف الذكر ، واخبرته الا يفتحه قبل موتى . مالك لا تكتبين ؟ اكتبى اكتبى كل كلمة اقولها ، فهل يبقى على الارض احد : مالك تبكين ؟ قولى إنا لله وإنا اليه راجعون . اكتبى كل ما اقول (وعند ذلك اشار اخى المحبوب الىّ مؤكدا ان اكتب كل مايقول حتى قوله « اكتبى كل ما اقول »

٢ ديسمبر . لم نشتر بعد مؤونة الشهر من الحبوب حتى اليوم ، وقد فعلت أمى ذلك زعما منها أنى قد أضطر إلى شراء دواء او غيره ، ولكن القوت لا يستغنى عنه ، ولا بد من شرائه ، ولا يزال صديقى فهيم يبعث فىّ الأمل ولكنى اراه قليلا ، ولا رغبة لى فى الحياة . لا والله إنى احب ان احيا على كره ، وذلك لكى ارى كيف حال اختى وامى . إن المرض قد نزل بى اولا فاستهنت به ، وقد زاد حتى اصبحت لا اقوى على احتمال ألمه ، وكانت زيادته فجأة ، إلا انى واثق بالله وهذا يخفف عنى كثيرا من الآلام .

* *

آخذ القلم للكتابة ــ انا فهيم ، واكتب كل ما يمليه

علىّ صديقى محمد ، لأنه يرغب هذا وأنا لا أود مخالفته . إنه كثير الوهم بلا موجب ، وأنا متأكد من انه سيبرأ من مرضه ، ويقوى بعد ضعفه بأذن الله بعد قليل . أراه يسعى لاثارة الدموع فى عيون من يزعم أنه يحبهم ويعمل على إيلام أفئدة الذين يقول إنه يحب أن يحيا على كره من اجلهم ، ولكننا نغتفر له هذه المغالطة ، ونسأل الله التعجيل بشفائه.

٦ ديسمبر . لم ترض أختى أن تستمر فى الكتابة لى وقالت إن ذلك يقتلها ، فهى لاتستطيع ان تكتب كلمة « موتى » بيدها . وها صديقى يكتب لى بدلها . أشعر ببعض اطمئنان كلما أرى حولى من يهتم لأمرى ، ولعل ذلك المهتم قد ارسله الله ليساعدنى فى تلك الشدة . وماخاب من وثق بالله .

٨ ديسمبر . ها قد اصبحت عاجزاً عن الأملاء ، إذ أشعر كأن انفاسى تخوننى ، وان صدرى لايستطيع دفع اللفظ إلى اللسان . تغيض نفسى يوما عن يوم ، ويلوح لى أن قد تمت الصحيفة ؛ تمت قصتى ، فوداعاً أيتها الكراسة ، لأنى لن أعود اليك . تمت حياتى التى كنت أتساءل كيف تتم ،

وأكثر من التفكير فى شأنها . ألا من مبلغ هذه الصرخة إلى المجتمع ، ليرى صورة ضحية من ضحاياه ، ولعلها تزعجه . ولست فى مقام الحانق الغاضب ، لأنى على ابواب الآخرة أستهين بكل تلك المادة الدنيوية ، فليكن الغضب والحنق للأحياء ، فأنا على وشك تركهم الى عالم العدل ، عالم المساواة . الى العالم الطيب والمقام الكريم .

تكملة القصه بقامى أنا فهيم صديق المرحوم محمد

مساء ١٤ ديسمبر . بدأت اكتب منذ يومين لصديقى محمد ، ولكنه فى هذا اليوم لم يستطع أن يملى املاءه العادى بل كان قوله متقطعا ، ولما انتهى أومأ إلى ان اطوى الكراسة ولوى وجهه نحو الحائط ، وكأنى به كان يبكى عند ذلك . فلم استطع البقاء هناك إلى جانبه ، وتركت الحجرة وقلبى يتمزق ، وخرجت الى الحجرة المجاورة ، وهاانا فيها اكتب هذه الكلمات والدموع تمسح ما اكتب .

١٥ ديسمبر . اظهر محمد اليوم صباحا بعض القوة ، ثم لم يلبث ان رجع الى حاله من الضعف ، وهو لا يكاد يتكلم كلمة واحدة . ولكن عينيه تنطقان احيانا بالنظرات ، واحيانا

بالدموع. مسكين ياعزيزى محمد، فان قلبي ينفطر كلما اراك تبكى، وانت على هذه الحال، لأنى اعلم سبب بكائك، فما هو حزنا لتوقع الموت بل هو لخوفك على من تحب.

١٦ ديسمبر. ماذا عسى ان يكون فى ذلك الكتاب الذى اعطاه محمد لى؟ وانى اخشى ان امسه تشاؤما، وانا كثير التشاؤم — لااريد انْ امسه خشية ان يكون فألا غير حسن لصديقى، لأنه اوصى ألا أمسه إلا . . لااريد ان اذكر كلمة واحدة تؤذن بشرٍ له، واسأل الله له الشفاء وهو القدير.

مساء اليوم. هدأت دموع محمد، وهو الآن ساكن. وأرى على وجهه انطلاقا كأنه استبشار بشفاء قريب، فهل تتحقق الأمانى؟ إن امه واخته لاتزالان على البكاء كل حين، وانهما لجديرتان بذلك، إذ ليس فى الناس من عاش لغيره كما عاش محمد لهما. ولا يرضى صديقى ان نبقى إلى جانبه فى الليل كعادتنا، وهو يلح فى ذلك إلحاحا نخشى ان نعارضه فيه. وقد طلب منا ان نعدل له الفراش إلى جهة القبلة، وقد اجبناه إلى ذلك بقلوب تتمزق، لأننا لانستطيع أن

نخالفه ويلاه لو حدث ما يتنبأ به ! إني اسمع الآن نحيب امه. أعانها الله على الصبر ، فهي مسكينة. ولا أستطيع أن اسمعها تبكي بغير أن أجيب ، وها أنا ابكي برغمي .

نصف الليل . بعد أن قمنا من عند محمد ، ذهب كل إلى مخدعه ، ولكني لم البث أن سمعت صوت أمه وهي تبكي . فانها لم تقدر أن تذهب لتنام ، فأخذت تختلس النظرات بين حين وآخر إلى غرفته ، وقد رأت منه حركة مضطربة هذه الساعة ، فذهبت الى جانبه تسأله عما يجد ، ثم خرجت من عنده ولعله طلب منها ذلك ، وهي الآن تبكي حتى يخيل لي ان نياط قلبها تتقطع . مسكينة هي ساعدها الله ! لا أستطيع الذهاب اليه الآن لوجود أخته معه ، لأنها استيقظت على بكاء أمها وذهبت الى هناك. ولكن امه تناديني ولابد ان اذهب ..

* * *

١٧ ديسمبر . رحمك الله يا اخي محمد ، فقد تم كل شيء ، وطويت الصحيفة ، وإنا لله وإنا اليه راجعون .

مات صديقي اليوم وكانت ميتة هادئة ـ مضى وفي

عينه دمعة فرحمه الله ، فان قلبه كان يفيض حباً ، وما كان يفكر فى نفسه يوما . انى ابكيه وابكى نفسى فيه ، لأنى ارى حياتى قد ذهب منها بفقده لون من أزهى الألوان ، فقد كان مؤنسى ومهذبى . انى كنت ارى فيه من ايام التلمذة الأولى خلقاً عاليا ، ورجولة نادرة رغم صغر سنه ، فاذا ذكرته ذكرت طيبة القلب ، والكرم والشجاعة ، وكل حسنة من الحسنات وقد قضى صريع نفس كبيرة ، وضحية نظام فاسد اثقله بالأحمال ، فاجتهد ان يضطلع بها ، ولكنه وجد حوله دناءة وحب نفس وبخلا وطمعاً فناء بالحمل ، وهكذا قسمت الحظوظ فى ذلك العالم الحقير .

انه ما بكى على الحياة ، وما كانت لتسوى عنده شيئاً . ولكنه كان يكبر الفضائل والرجولة ، ويستهين بكل شىء فى سبيل المحافظة عليها . كيف اقضى الحياة بعده وحيداً من صديق كان يشغل أكبر جزء من قلبى ؟ وهل اقدر ان اعيش وليس فى الحياة ذلك الركن الذى كنت الجأ اليه إذا ضاقت فى عينى السبل ؟

لقد كان يزعم أنه مدين لى ولكن غفر الله له تلك الغلطة فانه لا يعلم مقدار فضله علىّ لأنه لا يرى حسنات نفسه

وهكذا كان شأنه ، ينسى فضله ويذكر كل صغيرة تعمل له .

إنى كلما اتذكر الطبع البشرى ، وانى لابد سأنساه بعد حين ، اثور على نفسى ، لأنى لا أستطيع أن أتصور كيف تكون حياتى إذا خلوت من ذكراه ، ومن ذكرى نفسه الطيبة ، وخلقه الحلو . هكذا تمضى الآجال ، وهكذا يتخلف بعض الناس عن بعض ، وهكذا يذهب عن العالم أنسه وعن الأرض رونقها .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

١٨ ديسمبر ـ لها العذر فيما تفعل ، وكيف تصبر الأم على فقد ابنها ، ولا سيما إذا كان الابن هو المرحوم محمد .

فتحت اليوم كتابه ، رحمه الله ، وهل تعدى ما كان بنفسى ، وهل كنت لأترك اهله ؟ إنه واثق بى كل الوثوق وكأنى ارى روحه إلى جانبى تبعث فى حبا . نم هادئا ياعزيزى فقد اراد الله ما كان ، وسيسر روحك ان ترى سعيى فى إسعاد من تحب ، ولو انها تكون سعادة ناقصة بفقدك . إنى استطيع الآن ان اعمل كل ما كان يجول بنفسى لأن

محمدا كان يتألم كلما يرانى اقدم له شيئا من المساعدة ، فان نفسه كانت تأنف المساعدة حتى من صديقه . رحمه الله !

٢٣ ديسمبر ـ لا استطيع مع والدة صديق إلا التلميح عما أريد ، لأنى أرى الحزن يكاد يذهب بها ، وقد فهمت قصدى على ماأظن وهى عاقلة من خير السيدات ـ ووافقتنى وأنعم برأيها السديد ، على أن الزواج ليس من دلائل المرح فقد قالت لى عندما لمحت لها بزواج السيدة (فاتنة) ابنتها ، إنها لاتظن أن الزواج دليل فرح يجب ألا يظهره الحزين ، فان الزواج والميلاد والموت كلها امور لا بد منها فى هذه الحياة فيجب ألا يمنع حدوث أحدها حدوث الآخر . وبالطبع لن يكون شىء ليلة الزواج مما يدل على المرح . ولا أرى موجبا لاخبار أهلى ، فانهم يعرفون بمن سأتزوج ، وهم يقدرون شرف الأسرة قدره ، وسيسرهم النبأ ولاشك .

٢٨ ديسمبر ـ اليوم قابلت السيدة (فاتنة) لاول مرة وتذكرت كل حسنات صديقى المرحوم ، وقد أصبحت زوجى ولا ينقصنا الا تسجيل الاتفاق ، ولا يمنع ذلك من أن أحادثها على ما أرى ، وإن حديثها جميل ، يذكرنى

بحديث صديقى. إنى لا أقدر أن أرضى عن ذلك المجتمع الذى سلبنى اعز صديق ، وما كان اخى محمد الا ضحية من ضحاياه

انظر حولى فأرى ناحيتين ، ناحية فيها الشقاء القاتل والأخرى فيها الترف المفسد ، ناحية فيها الكرم وعلو النفس والايثار ، والاخرى فيها الجهل والدناءة وحب الذات ، وإن السائد فى هذا المجتمع وياللأسف ، فريق الجهل ، فريق الدناءة ، فريق حب الذات ، ألا رحمك الله ياصديقى ، ولا بد من العدل ولو بعد حين .

« كلمة للسيدة فاتنه اخت المرحوم « (محمد) »

٣١ ديسمبر ـ انتهت حياة حبيب كان اعز علىّ من نفسى حياة اخى المحبوب « محمد » . لقد كان لا يفكر إلا فى امر واحد وهو إسعاد امه واخته ، ولكنه لم يوفق الى رؤية ذلك فى حياته ، فقضى صريع سعيه .

إننى اذكرك ياعزيزى ولا استطيع ان اجفف عينى . فان روحك التى كانت تسعى لاسعادنا فى حياتك ، قد ذهبت ضحية ذلك السعى ، ولكنها لاتزال مشرفة علينا بعد الموت ، وهاهى اشعر بها ترفرف فوقنا وتغمرنا بحبها

الفياض كما كنت فى الحياة . رحمك الله وأعاضك اجرا بعملك وسعيك ورحم شبابك الغض ، ياعزيزى ، وياأخى وياوالدى.

« كلمة لوالدة المرحوم (محمد) »

٣١ ديسمبر . ماذا اقول؟ لقد مضيتَ يابنى ، وعزائى أنى سأمضى على اثرك ونلتقى ان شاء الله فى عالم لا يفنى . انى اذكرك فأذكر كل حياتى بين سعد وشقاء ، واذكر آلام نفس صغيرة تحملت عبء الحياة قبل ان تذوق لذتها. مسكين ياولدى ، رحمك الله ، ولم يطل بقائى بعدك فى هذا العالم. اطووا عنى هذه الكراسة،فانى لا اطيق النظر إليها بعده .

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

883